جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

البنية السردية في السيرة الذاتية

(مع الأيام) لإبراهيم الإبياري

بقلم الدكتور

عبد الوهاب عبد المقصود علي برانية

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور - جمهورية مصر العربية

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م

الجزء الرابع (إصدار ديسمبر)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

البنية السردية في السيرة الذاتية
(مع الأيام) لإبراهيم الإبياري

عبد الوهاب عبد المقصود علي برانية
قسم الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور - جمهورية مصر العربية
البريد الإلكتروني : AbdelwahabBarrania.el.8.41@azhar.edu.eg

الملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل الفني البنية السردية للسيرة الذاتية الخاصة بالأستاذ إبراهيم الإبياري، التي تحمل عنوان (مع الأيام) وهي على وجازتها وعدم تَجَزُّئِها تحمل قيمًا موضوعية وفنية كثيرة ومتنوعة، تنبئ عن كاتب متميز يحمل الكثير من معالم الأصالة في أدبنا العربي الحديث.

وقد سعت الدراسة إلى الوقوف بالقارئ على غير قليل من تلك القيم الفنية والموضوعية التي استلهمها الباحث، من خلال الوعي بأدوات العمل الفني المدروس، فهو يعرض لمفهومي السرد والسيرة وارتباطهما العضوي والفني، وهو كذلك يقف بالقارئ على شيء من حياة الكاتب الخاصة كما تصورها بعض كتب تراجم الأعلام الحديثة، ثم تتناول بشيء من الدقة والتركيز بعض فنيات العمل المدروس من خلال تناول أحداث السيرة وشخصياتها وفضاءيها: الزماني والمكاني، ولغة الكاتب وأسلوبه، كل ذلك تناولته الدراسة موجزة، أو مسهبة، حين تتطلب الدراسة الإيجاز أو الإسهاب.

الكلمات المفتاحية : السرد، السيرة الذاتية، إبراهيم الإبياري، مع الأيام، الحدث، الشخصية، الزمان والمكان ، الوعاء اللغوي.

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

٣٩٥٨

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

Narrative structure in the autobiography With the days) by Ibrahim Al-Ibiari)

Abdel Wahab Abdel Maqsoud Ali Baraniyah
Department of Literature and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Damanhour, Arab Republic of Egypt
Email: AbdelwahabBarrania.el.8.41@azhar.edu.eg

Abstract

This research deals with the study and technical analysis of the narrative structure of Professor Ibrahim Al-Ibiari's autobiography, which bears the title (With the Days). It is brief and indivisible, and carries many and varied objective and artistic values. It predicts a distinguished writer who bears many features of originality in our modern Arabic literature.

The study sought to stand with the reader on more than a few of those artistic and objective values that the researcher was inspired by, through awareness of the tools of the studied artistic work, as he presents the concepts of narration and biography and their organic and artistic connection. Modern flags, then deals with some accuracy and focus on some of the techniques of the studied work by dealing with the events of the biography, its personalities and its spaces: temporal and spatial, and the language and style of the writer, all of which were covered by the study briefly, or extensively, when the study requires brevity or verbosity.

Keywords: narration, autobiography, Ibrahim al-Ibiari, with days, event, personality, time and place, linguistic container.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

تكاد البنية السردية للسيرة الذاتية تتشابه إلى درجة كبيرة مع نظيرتها في الرواية، ولا تكاد تجد أوجه اختلاف كبيرة بينهما في هذين اللونين الفنيين من ألوان التعبير النثري، فكلاهما يهتم بشكل مباشر بالحدث والشخصية والفضاءين الزماني والمكاني، واللغة بأساليبها المتنوعة، غير أن السيرة الذاتية ربما كانت بل هي كذلك أكثر التصاقا بالواقع من الرواية؛ فقد تبعد الرواية بمسافات قد تطول أو تقصر عن مسار الواقع فتتاح للراوي فرص التعبير والتحليق في فضاءات غير تقليدية يستطيع الكاتب من خلالها النفاذ إلى عوالم غير متوقعة، وعرض ومناقشة قضايا ربما يكون هو أبعد الناس عن ممارستها في حياته الخاصة، لكن الأمر على خلاف ذلك بالنسبة لكاتب السيرة الذاتية؛ فهو إنما ينقل واقعا معاشا بحذافيره كما عاشه، ويأخذ قارئه إلى منطقته الخاصة فيطلعه على أدق دقائقها أو ما يسمح به قلم كاتب ويضن به قلم كاتب آخر.

ولا شك في أن الكشف عن بنية نص سردي من فن السيرة الذاتية وإن تناول البنى السردية نفسها التي تنتمي لعالم الرواية ليحتاج إلى دقة بالغة ومعايشة حثيثة لتلك السيرة والاندماج معها اندماجا يسمح بالوقوف على ما يستهدفه كاتبها مما يرمي إلى إطلاع قارئه على شيء منه، وهي مهمة ليست هينة على باحث أدبي، لابد له أن يتسلح بأدوات فنية وذوقية فضلا عن رهافة حس ورقة شعور وتطلع للأفضل.

ولما كانت السيرة الذاتية ليست بعيدة عن شواغل الباحث، فقد خاض تجربتها وأصدر سيرته الذاتية في جزأين لذا كان وقوفه على تجربة مماثلة وقراءتها مما يروق له ويستهويه وينبئ بالوقوف على شيء من أدوات الكاتب السير ذاتي وتجليتها في رفق من خلال سيرة (مع الأيام) للكاتب والمحقق

المصري إبراهيم الإبياري محاولا الوقوف على خطابها الفني بكل ما يحمل من عناصر البناء السردي.

ولقد كان اتجاهي إلى فن السيرة الذاتية مدفوعا بتجربة سابقة كما قلت في كتابتها، ورغبة جارفة للوقوف على التقنيات الفنية لكتابة تلك السير من خلال إحداها، وكأني أتجه بالأساس من طرف خفي لقراءة أفكار شاركت غيري في إعلانها وإفراغها من الذاكرة، وفي ذلك من المتعة ما فيه.

أما عن السيرة الذاتية محل الدراسة (مع الأيام) التي كتبها الأستاذ إبراهيم الإبياري قبل ما يزيد عن ستة عقود، فقد اتجهت إليها بلا تردد لعدة أسباب منها:

- أني قرأتها عدة مرات فلم أستشعر منها الملالة أو السأم، فقد توخى كاتبها التركيز على مرحلة عمرية من حياته هي حياته التعليمية منذ الكُتَّاب وحتى أتم تعليمه بدار العلوم التجهيزية، مارًّا في سرده عبر تلك المراحل بأحداث تتشابه لدى كثير من الناشئة والمتعلمين، فكان فيها من عناصر التشويق والإمتاع ما يغري بقراءتها والوقوف على جانب من حياة كاتبها الخاصة.

- أن صاحب السيرة كاتب معروف وله جهد مشكور في التحقيق الأدبي ومعالجة بعض كتب التراث ودواوين الشعر القديمة والحديثة، ولا شك في أن شخصية كهذه حينما تكتب سيرتها الذاتية أو حتى تصور مرحلة من عمرها أو عدة مراحل لا بد أنها تشوق القارئ وتستهويه، للوقوف على معالم تلك الحياة وعوامل تكوينها الأدبي والثقافي، وهذا ما حدا بي بقوة إلى قراءة تلك السيرة والوقوف على بعض فنياتها.

وقد حرصت في هذا البحث على إبراز قيمة هذا العمل الفني من خلال تناول عدة جوانب فنية كشفت عنها السيرة بوضوح وجلاء، مركزا بالدرجة الأولى على المنهج الفني مع عدم إغفال الجوانب الموضوعية التي تصورها سيرة الإبياري الجزئية.

وقد جاءت الدراسة في مدخل وعدة مباحث: أما التمدخل فوقفت فيه على مفهوم السرد والسيرة الذاتية وما بينهما من ارتباط، وكذا وقفت على شيء من حياة الكاتب في إيجاز غير مخل. ثم تناولت في مباحث الدراسة البنى السردية المتنوعة التي تعنى بالحدث والشخصية والفضاءين: الزماني والمكاني واللغة وأساليبها المتنوعة ثم أعقبت ذلك بخاتمة تحمل بعض النتائج وفهرس للمراجع والموضوعات.

وعساي أن أكون قد وفقت في تلك المعالجة الفنية لهذا العمل السردي الرائع.

المدخل

ويشتمل على جزئيتين:

الأولى: مفهوم السرد والسيرة الذاتية وما بينهما من ارتباط عضوي وفني.

الثانية: التعريف بالكاتب إبراهيم الإبياري، وروافد تكوينه الأدبي.

أولا: <u>مفهوم السرد والسيرة الذاتية وما بينهما من ارتباط عضوي وفني.</u>

١- مفهوم السرد:

تناولت معاجم اللغة ومصطلحات الأدب مفهوم السرد بطرائق مختلفة، فمعاجم اللغة تهتم بالشكل الأساسي بمدلولات الكلمة اللغوية ومعانيها المتنوعة، بينما معاجم المصطلحات والتعاريف الأدبية والنقدية تركز بالأساس على توظيف المعنى اللغوي بشكل تطبيقي عملي في أجناس الأدب النثرية من قصة ورواية وسيرة ذاتية، وسوف نتناول شيئا من تلك المدلولات والمفاهيم لدى هؤلاء وهؤلاء، على ألا يكون هدفنا الإطالة والإسهاب بقدر ما هو تجلية المفهوم والوقوف على حقيقته بما يخدم موضوع الدراسة.

ففي معجم لسان العرب السرد: هو "تقدمة شيء إلى شيء تأتي به متسقا بعضه في إثر بعض متتابعا" [١]

وفي المعجم العربي الأساسي: "سرد يسرُد سردا: الدِّرْعَ: نسجها والشيء: تابعه ووالاه، والقصة أو نحوها: رواها" [٢]

ويرى السعيد علوش أن "السرد هو دراسة البنيات السردية، وهو تقنيات خطابية في الرواية" [٣]

١- ابن منظور: لسان العرب مادة (سرد) ط دار المعارف ١٩٨٧م

٢- أحمد مختار عمر وآخرون المعجم العربي الأساسي (المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون) ١٩٨٩م ص٦١٨

٣- السعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ط١ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٥م ص١١١

ويرى صاحبا "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب" أن السرد هو: "المصطلح العام الذي يشتمل على قص حدث أو أحداث أو خبر أو أخبار، سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال" (١)

ونلاحظ أن معظم هذه المعاجم وغيرها تتناول مفهوم السرد بشكل مقتضب لا يتماهى مع مدلول الكلمة الذي يفيد التتابع في القص والإخبار سواء وافق ذلك عالم الواقع والحقيقة أم حلق في عوالم الخيال الذي يضفي عليه السارد من موهبته ما يقربه من الحقيقة ويمنحه الإقناع بقربه من الواقع، بينما راح د.لطيف زيتوني يتناول السرد في معجم مصطلحات نقد الرواية بشيء من التفصيل لم يُعْهَد في غيره من معاجم المصطلحات، استغرق ذلك ثلاث صفحات من معجمه الدقيق المركز، تناول فيها مفهوم السرد وأنواعه وبعض تطبيقاته في الكتابة الروائية، وربما أوعزنا ذلك التناول المسهب إلى حد مَّا إلى طبيعة المعجم الذي يتناول مصطلحات نقد الرواية بصفة خاصة، فكان من الضروري أن يتناول الناقد هذا المصطلح بشيء من التفصيل وإلا كان يعد مقصرا.

ويعرف الدكتور زيتوني السرد بأنه "فعل يقوم به الراوي الذي ينتج القصة، وهو فعل حقيقي أو خيالي، ثمرته الخطاب، ويشمل السرد على سبيل التوسع مجمل الظروف المكانية والزمانية، الواقعية والخيالية التي تحيط به، فالسرد عملية إنتاج يمثل فيها الراوي دور المنتج، والمروي له دور المستهلك، والخطاب دور السلعة المنتَجَة، وتنعقد العلاقة بين الراوي والمروي له في السرد من خلال الأسئلة المباشرة أو غير المباشرة التي يطرحها الأول ليضمن حسن متابعة الثاني لحكايته، أو يطرحها الثاني حين يواجه ما يستغربه أو لا يوافق منطقه من كلام الأول" (٢)

١- حمدي وهبة وكامل المخندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ط٢ مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٤ ص١٩٨

٢- لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية ط١ مكتبة لبنان ٢٠٠٢م ص١٠٥

وقد عرفه بعض نقاد الغرب بأنه " الحديث أو الإخبار (كمنتج وعملية وهدف وفعل وبنية وعملية بنائية) لواحد أو أكثر من واقعة حقيقية أو خيالية (روائية) من قبل واحد أو اثنين أو أكثر (غالبا ما يكون ظاهرا) من الساردين وذلك لواحد أو اثنين أو أكثر (ظاهرين غالبا) من المسرود لهم" (١)

وقد بين جيرالد برنس أن السرد يتكون من قصة وخطاب، وأن البنية السردية هي شبكة علاقات تتولد من عناصر مختلفة وتتناسب مع ألوان من الكتابة الفنية يتخذها السرد القولي مثل الروايات والرومانسيات والروايات القصيرة والقصص القصيرة والتاريخ والسيرة والسيرة الذاتية، والملاحم والأساطير والقصص الشعبية، والقصص البطولية، والقصائد القصيية والتقارير الإخبارية، وقصص المحادثات العادية وغير ذلك) وإذا كان السرد بهذا الانتشار فإن جيرالد برنس يرى أن كل إنسان يعرف كيف ينتج أو يمارس سردا على نحو ما في سن مبكرة، وأنه يحتوي على جزئين القصة والخطاب في إطار بنية سردية تحتوي على بداية ووسط ونهاية. (٢)

٢- مفهوم السيرة الذاتية وارتباطها بالسرد:

يرى بعض الدارسين أن مفهوم السيرة الذاتية يختلف تماما عن كثير من المصطلحات التي تشبهه في الكتابة، حيث يتميز كاتبها بأنه "يفتش في ذاته أو عن ذاته، في هيئة مذكرات أو ذكريات متناثرة أو مفكرات بآماله وأحلامه وانطباعاته، أو رحلات تسجل حركاته وتنقلاته في البلاد، أو مقالة يصف فيها جانبا من نفسه، أو يرسمها في فصل، أو يتحدث عن تجربة محدودة فكرية أو أدبية دون سائر جوانب حياته، وقد يدلي لنا باعترافاته بصورة فنية يعلو فيها نبض الصراع، وقد يسجل سيرته كاملة من طفولته حتى وقت الكتابة أو زمن

١-جيرالد بيرس: المصطلح السردي ترجمة عابد خازندار مراجعة وتقديم محمد بريري ط المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣ ص١٤٥

٢- المصطلح السردي ص١٤٦

قريب منها وهذه هي أدب السيرة الذاتية" (١)

فالمؤلف يكتب بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث تعظم أو تضؤل تبعا لأهميته، أي أنها تبدأ من أصل الأسرة والطفولة ثم تتدرج حسب أدوار العمر، تسجل فيها الوقائع يوما فيوما أو دفعة واحدة أو بصورة متقطعة بعد أن تجمع عناصرها من مصادر متعددة. (٢)

وقد عرف د.إبراهيم السامرائي السيرة الذاتية بأنها ترجمة الأديب أو الكاتب عن نفسه، متعرضا "لسيرته ابتداء من مولده ومدرجه وأين عاش وكيف شق طريقه في الحياة، وما عرض له من أحداث سارة ومحزنة، وهو يمر على أسرته فيتحدث عما كان له في صباه مع والديه، ويتجاوز ذلك إلى سائر أفراد أسرته، ثم ينظر إلى علاقاته بالناس أصدقاء وأعداء، وصاحب السيرة الذاتية يفصح عن أسراره وما يكنه في دخيلة نفسه، وقد يكون في هذا ضرب من الاعتراف بالحسن والسيء، وما أحسن فيه وما اقترفه من عيوب" (٣)

ونلحظ أن معظم هذه التعاريف تركز على جانب المضمون من السيرة الذاتية أكثر من جانب الشكل الفني، ولا أدري أهذه التعريفات راحت تركز بالدرجة الأولى على مضمون السيرة وفحواها فتاه الشكل الفني في هذا الخضم، أم أن تغليب المضمون كان عن قصد ولا أظنه كذلك.

ولا يمكن أن ننهي هذا المبحث قبل أن نشير إلى عناصر البنية السردية في إيجاز؛ لما لها من أهمية قصوى باعتبارها ركيزة هذه الدراسة؛ إذ ينحقق عنصر

١- أحمد علي آل مريع: السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم كتاب المجلة العربية رقم ١٧٨ سبتمبر ٢٠١١ ص٨٢

٢- د.محمود أبو الخير: الترجمة الذاتية في الأدب العربي مقال منشور بمجلة (أفكار) الأردنية عدد ٤٩ ١٩٨٠ ص٦،٧ بتصرف

٣- د.إبراهيم السامرائي: فن السيرة الذاتية عرفه العرب قبل غيرهم مقال منشور بمجلة الفيصل عدد ١٤٢ ربيع الآخر ١٤٠٩هـ ص٣٣

السرد في العمل الأدبي محل الدراسة "السيرة الذاتية" من خلال وجود عدة عناصر، هي أساس عملية السرد، ومن خلالها ينطلق معبرا عن أهدافه، وهذه العناصر هي:

- الفعل أو الحدث المحتوي لعملية السرد أو الحكي.
- الشخصية الممثلة لهذا الفعل أو الحدث الذي تنهض عليه عملية السرد السير ذاتي.
- الفضاءان: الزماني والمكاني.
- وفوق ذلك كله لا بد من صياغة كل هذا الحكي صياغة جيدة تتناسب مع كل معطياته؛ إذ اللغة هي الإطار الذي يصور كل العناصر الفنية، وتتشبث هي به؛ باعتباره أهم عنصر يعتمد عليه السرد الفني في أي عمل أدبي يكون السرد أهم عناصره.

فالحدث هو المادة الحكائية التي يصنع منها السارد موضوعه وحكايته.

والشخصية هي " التي تصنع اللغة وهي التي تبث أو تستقبل الحوار، وهي التي تصطنع المناجاة، وهي التي تصف معظم المناظر...., وهي التي تعمر المكان، وهي التي تملأ الوجود صياحا وضجيجا ، وحركة وعجيجا،وتتفاعل مع الزمن فتمنحه معنى جديدا، وهي التي تتكيف مع التعامل مع هذا الزمن في أهم أطرافه الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل " (١)

وأما الزمان فيعد أحد أهم المحاور التي تعتمد عليها النصوص الحكائية؛ لكونها تمثل تفاعلا مميزا بين عدة مستويات زمنية، إن في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، سواء أكان ذلك كله نابعا من داخل النص الحكائي ومغبرا عن إطاره الزمني، أو كان خارجا عنه، لاعبا دورا مًّا في تكوينه، فيظهر الزمن في الحكاية بشكل سافر، أو بشكل خافت، أو يختفي تماما ويعتمد حينئذ على الاسترجاع

١- د.عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد سلسلة عالم المعرفة عدد رقم ٢٤٠ الكويت ١٩٩٨م ص٩١

الزمني والاستدعاء من الذاكرة؛ ليمثل في الحكاية على أنه يجمع بين بعض أطراف الزمن المعروفة: الماضي والحاضر والمستقبل.

ويأتي المكان ليثبت دوره هو الآخر في بناء النص السير ذاتي إذ " من المستحيل على محلل النص السردي أن يتجاهل الحيز، فلا يختصه بوقفة قد تطول أكثر مما تقصر، كما أنه يستحيل على أي كاتب روائي أن يكتب رواية خارج إطار الحيز "[١]

وهذا الحيز المكاني لا يتحقق وجوده إلا من خلال الأفكار والبنى الأخرى التي ترتبط به.

وتبقى اللغة أداة دقيقة للتصوير والتعبير عن كل الأفكار والأطر الزمانية والمكانية والنماذج البشرية ؛ فهي الأداة التي تبرز كل هذه البنى وتعتمد عليها في إثبات وجودها، وبدون اللغة لا يمكن أن نقف على أدوار كل هذه العناصر الفنية.

وهذه العناصر جميعها تتضافر معا لتشكيل البناء الفني لسيرة مَّا، ومن هنا ولما كانت أهمية السيرة على هذا النحو، فإن تناول هذه العناصر الفنية يعد من صميم الدراسة الأدبية لفن السيرة الذاتية، وهو ما سنحاول إثباته لسيرة إبراهيم الإبياري الذاتية (مع الأيام) في مباحث تالية.

ثانيًا: التعريف بالكاتب إبراهيم الإبياري وتكوينه الأدبي:

كان الابن البكر لوالديه، جاء إلى دنياهما وهما لا يزالان في أول عهدهما بالحياة الزوجية، فأولياه من الرعاية ما يوليه زوجان مقبلان على الحياة بكل أمل يقول عن بطل سيرته الذاتية: "كان بكر أبويه، رزقاه والشباب غض والدنيا مواتية" [٢] قد كان ذلك المولود هو "إبراهيم بن إسماعيل الإبياري" وقد كان مولده في عام ١٩٠٢م في "طنطا" "ودرس في الكُتَّاب ثلاث سنوات، تعلم فيها

١- في نظرية الرواية ص١٤٢

٢- إبراهيم الإبياري: مع الأيام مكتبة الآداب بالقاهرة ١٩٥٩م ص١

القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم، ثم درس في مدرسة طنطا الابتدائية، وبعد أربع سنوات انتقل إلى دار العلوم التجهيزية، ثم القسم العالي. وبعد التخرج التحق بالقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، حيث التدريب العملي، ومكتبة خاصة بالقسم، ومكتبة عامة تلبي جميع الطلبات، وتَعَرَّفَ إلى أحمد أمين وطه حسين وعباس العقاد، وله معهم ذكريات، واشتراك في مؤلفات أو تحقيقات، ثم شغل وظائف في وزارة الثقافة بعد تركه دار الكتب، ولكنها مثل سابقتها كانت موصولة بإحياءالتراث، ثم عمل في معهد مدريد للدراسات الإسلامية أستاذا، وجاهد أن يجعل منه مركزا لإحياء التراث الأندلسي وأنشأ به مطبعة عربية. ويذكر أن إقباله على كتب التراث كاد يصرفه عن الكتب الجديدة إلا في القليل الذي لابد منه؛ ولذلك يدين لمكتبة دار الكتب بأساتذيتها، على أنه لا ينكر أثر كاتبين في حياته هما المويلحي والمنفلوطي وخاصة كتاب "حديث عيسى بن هشام" للأول والنظرات والعبرات للثاني.

وكتب في صحف: البلاغ والسياسة الأسبوعية والمقتطف. وأخذ في كتابة القصة وهو طالب بدار العلوم وتوفي قي شهر شوال الموافق لشهر نيسان أبريل من عام ١٩٩٤م (١)

وذكر صاحب المستدرك على تتمة الأعلام أن أول جهود إبراهيم الإبياري في التحقيق كان مشاركته في تحقيق الجزء السادس من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وأن أول ما أخرجه هو ديوان أستاذه عبد المطلب ثم المعجم في بقية الأشياء لأبي هلال العسكري. (٢)

١- محمد خير رمضان يوسف: المستدرك على تتمة الأعلام للزركلي دار ابن حزم بيروت لبنان ط١ ٢٠٠٢م ص١

٢- السابق ص١

مؤلفاته:

وإبراهيم الأبياري باحث من مشاهير المؤلفين والمحققين المصريين، ومن مؤلفاته: «تاريخ القرآن»، «رسالة الشاعر» «شرح لزوم ما لا يلزم»، «مع الأيام»، «الموسوعة القرآنية الميسرة» «نظرات في التاريخ الإسلامي» «معاوية الرجل الذي أنشأ دولة» «الوليد بن يزيد والدولة الأموية» «الدولة الإخشيدية» «الدولة الأيوبية» «مهذب السيرة النبوية» وحقق كثيراً من المصنفات منها «السيرة النبوية» لابن هشام بالاشتراك، «الأيام والليالي والشهور» للفرّاء، «الإنباه على قبائل الرواه» لابن عبد البر، «تاريخ افتتاح الأندلس» لابن القوطية، «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي، «تجريد الأغاني» لابن واصل الحموي بالاشتراك، «العقد الفريد» لابن عبد ربه بالاشتراك، «إعراب القرآن» المنسوب للزجاج (وفيه نظر)، أجزاء من «الأغاني» للأصبهاني، «شرح ديوان المتنبي» للعكبري (وفيه نظر)، «أزهار الرياض في أخبار عياض» للمقري، «مختار الأغاني» لابن منظور حقق منه الجزء الأول «نهاية الأرب في أنساب العرب» للقلقشندي، «كتاب الجيم» للشيباني حقق منه الجزء الأول كذلك «فقه اللغة» للثعالبي بالاشتراك، «لزوم ما لا يلزم» للمعري، «لطائف المعارف» بالاشتراك.(١)

١– نزار أباظة ومحمد رياض المالح: إتمام الأعلام ذيل كتاب الأعلام للزركلي ط١ دار صادر بيروت ١٩٩٩م ص١٤

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

البنية السردية

في السيرة الذاتية (مع الأيام) لإبراهيم الإبياري

وتشمل عدة مباحث:

المبحث الأول: بنية الحدث.

المبحث الثاني: بنية الشخصية.

المبحث الثالث: بنيتا الزمان والمكان.

المبحث الرابع: الوعاء اللغوي.

المبحث الأول
بنية الحدث

أولا: أحداث (مع الأيام)

تمثل السيرة الذاتية لإبراهيم الإبياري (مع الأيام) خير تمثيل طفولة الكاتب وصباه ومطالع شبابه، تلك المرحلة التي تلقى فيها تعليمه الأوليَّ وحتى نهاية العقد الثاني من عمره.

وهي سيرة جادت بها قريحته التي عرفناه بها من خلال مؤلفاته العديدة ذات الأسلوب الرصين القيم، والتي تميل إلى أجواء الكتابة الحكائية، وإن تناولت أحداثا تاريخية لكنها جاءت في غلالة أدبية روائية، طبعتها بطابع التشويق والإثارة، اللذين هما من أهم عناصر الفن الروائي، وليست السيرة الذاتية ببعيدة عن هذه الأجواء، ومن هذه المؤلفات التي وضعها إبراهيم الإبياري في مستهل حياته الأدبية كتبه: (مغيب دولة)، (ميلاد دولة)، (نهاية المطاف) ويصور في هذا الأخير نهاية الدولة الفاطمية، و(قيام دولة) و(عذراء البصرة) و(أمة واحدة) وغيرها من الكتب التي تسجل معالم تلك الحيوات في المراحل المتعاقبة من الدولة العربية والإسلامية.

وقد صدرت سيرة (مع الأيام) ضمن منشورات مكتبة الآداب بالقاهرة في ديسمبر عام ١٩٥٩م، وجاءت في ١٩٧ صفحة من القطع المتوسط، وقد عرض الكاتب سيرته في أربعة وأربعين فصلا بلا أية عناوين، وإنما أرقام متتابعة يندرج تحت كل منها سرد للأحداث متواصل ومتراتب، وقد صور فيها جميعا أطوار حياته منذ طفولته وصباه، وحتى تخرجه في دار العلوم، وعمله بدار الكتب المصرية في القسم الأدبي بها، الذي هيأه وأعانه بعد ذلك للوقوف على ما بالدار من مؤلفات متنوعة في القديم والحديث ومخطوطات راح يشارك في تحقيقها بجدارة وإتقان. ومن اللافت أن إبراهيم الإبياري راح يستطرد كثيرا في وصف حياته التعليمية في مرحلة الطفولة واليفاعة ولكنه كان ضنينا جدا في وصف تلك الحياة في المرحلة

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

النهائية من تعليمه، حتى لنجده يعطي إشارات سريعة عن تلك الحياة ويقفز قفزات زمنية، ولا يقف وقفات مطولة على أحداث تلك المرحلة، وهو ما يشير إليه في قوله: " وما أحب أن أستقبل بك الحياة الثانية لإبراهيم في هذا الجزء، ولكني أحب قبل أن أفرغ من الحديث عن حياته الأولى- أعني حياته دارسا- أن أجمل لك...."[١] ثم راح يجمل ما عرضه في الفصول السابقة، وكأنما كان الكاتب يعتزم كتابة جزء آخر من سيرته يصور فيه حياته كاتبا وعاملا ومحققا، وهو ما يشير إليه في تقديمه لهذه السيرة: "وإني في هذا الكتيب مُقدِّمٌ جزءا، ومستبق جزءا، أرجو أن أعان على ما بقي كما أُعِنت على ما تقدم؛ كما أرجو أن أكون بما قدمت، وما سأطالعك به بعد حين قريب مما استبقيت، قد جمعت شيئا يفيد منه الناس اليوم، قبل أن يفيد منه السجل العام بعد" [٢] ولكني أظن أن هذا الجزء - الذي وعد الإبياري بإطلاع قارئه عليه - لم يكتبه ولم تسعفه الظروف للوفاء به؛ إذ لم تشر قائمة مؤلفاته إلى شيء من ذلك، رغم إشاراته المتعددة في مواطن كثيرة من سيرته الذاتية، بانتوائه تكملة تلك السيرة، غير أننا لم نقف على ما وعد به، كما أن الكاتب قد أوقفنا فيما سرده من أحداث على بعض الأحداث العامة التي شارك فيها على نحوٍ مَّا، وكان لها علاقة بشخصيته.

ولقد كان اعتماد إبراهيم الإبياري بشكل أساسي في سرد أحداث سيرته على ذاكرته، ولا يخفى ما قد يفوت الذاكرة من أحداث عامة أو خاصة؛ إذ الذاكرة كثيرا ما تخدع صاحبها عن غير قصد، ولا شك في أن اعتماد الكاتب على الذاكرة وحدها قد يعوزه الكثير من الدقة، وربما دفعه هذا إلى انتهاج الأسلوب الخيالي الذي يصور الأحداث على غير حقيقتها في بعض الأحيان، فيكون بديلا عن نقل الواقع كما هو أو كما حدث فعلا.

١- إبراهيم الإبياري: مع الأيام ط مكتبة الآداب بالجماميز ديسمبر ١٩٥٩م ص١٨٧

٢- إبراهيم الإبياري: مع الأيام ط مكتبة الآداب بالجماميز ديسمبر ١٩٥٩ ص (و)

ثانيا: بنية الحدث:

الحدث هو شيء لا يمكن تصوره بعيدا عن شخصية مَّا أو عدد من الشخصيات، تشترك جميعها في تكوينه ورسم خيوطه وإيجاده في عالم الواقع، أو على تعبير د. طه وادي "الحدث هو "الفعل القصصي" ، أو هو: الحادثة (Event) التي تشكلها حركة الشخصيات؛ لتقدم في النهاية تجربة إنسانية ذات دلالة معينة، أو هو الحكاية التي تصنعها الشخصيات، وتكوِّن منها عالما مستقلا، له خصوصيته المتميزة " [١].

وبما أن بنية الحدث تكشف للقارئ عن طبيعة ذلك الحدث، وما يتصل به من روابط مختلفة ومتعددة؛ فإن طبيعة هذه البنية في سيرة "مع الأيام" للإبياري تأخذ منحى واقعيا؛ ولعل طبيعة السيرة الذاتية من الناحية الفنية هي التي فرضت هذا النوع من المعالجة؛ إذ إن من طبيعة السيرة الذاتية أن تُحَدِّث بمصداقية عن الواقع ولا تُهَوِّم في عالم الخيال. فليس أمام كاتبها سوى عرض وقائع حقيقية لا مجال للخيال فيها؛ وإلا فكيف يأخذنا إلى عالمه ويقنعنا بما يسرده علينا من ذلك العالم الخاص لو لم يركن إلى جزئيات الواقع التي عاشها وتقلب فيها.

هذا عن الحدث وبنيته، أما مزج الواقع بالخيال فهو من متطلبات أسلوب السرد، الذي يكون جاذبا للمتلقي، ومقنعا له بما يحكيه السارد، فالخيال هنا أداة فنية تساعد على التحام البنية والإقناع بها.

والحدث بما له من أهمية كبرى في بناء السيرة الذاتية، فإنه يحتل موقعا متميزا من أية سيرة؛ إذ هو منطلق السارد للصعود إلى نقطة محورية تتحقق من خلالها أهدافه الفنية والموضوعية، فعلاقة الحدث بالشخصيات والزمان والمكان واللغة والأسلوب جد متينة؛ فهو بمثابة الهيكل العام أو الجسد الذي تسري فيه الروح، وتحمل سمته، وتسعى من خلاله في الزمان والمكان لتحقق الإقناع والإمتاع للمتلقي، ولولا هذا الهيكل (الحدث) لما وجدت تلك العناصر ما تلتف

١- د.طه وادي: دراسات في نقد الرواية ط دار المعارف القاهرة ١٩٨٩م ص٢٨

حوله وتؤدي وظائفها من خلاله، فالحدث يأتي أولا، ثم تأتي بقية العناصر الفنية تالية له وخادمة.

ولذا عده د. محمد يوسف نجم رائدا ومحركا لبقية العناصر، فهو عنده "الذي يبعث في القصة القوة والحركة والنشاط. وهو العصا السحرية، التي تحرك الشخصيات على صفحات القصة، وتسوق الحوادث الواحدة تلو الأخرى، حتى تؤدي إلى تلك النتيجة المريحة المقنعة، التي تطمئن إليها نفس القارئ بعد طول التجوال، والتي تتفق مع منطق الكاتب، ونظرته الخاصة للحياة" (١).

فالحدث بناء على هذا ذو دار أساسي في نسيج البناء القصصي، والسيرة الذاتية ما هي إلا فن حكائي يتناول حياة كاتبه، من كل جوانبها أو من بعضها، بواقعية وصدق، وتلتقي في هذا النسيج كل عناصر البناء الفني لتكوين نسيج متكامل لعمل أدبي يعبر عن رؤية كاتبه، فالشخوص في السيرة الذاتية هي التي تحمل الحدث وتمضي به في إطار زمني واحد أو أطر متعددة من حياة الكاتب، في بيئة مكانية واحدة أو بيئات متعددة، يكون لها حضور مكثف أو ملحوظ في تلك الحياة، متوصلا إلى تحقيق ذلك كله من خلال لغة معبرة ودقيقة ذات أدوات فنية متنوعة يتشكل من خلالها مجمل النسيج السيري، غير أن التعبير عن تلك التجارب الحياتية يجب أن يسل درب الحقيقة في تصوير حياة المبدع لا الخيال؛ لأن الخيال يباعد بين تصوير ذلك كله تصويرا دقيقا معبرا.

ولكن أي الأحداث في حياة كاتب السيرة يكون أولى باهتمامه؟ أيصوب عدسته نحو كل تجارب حياته، فيكون كمن يكتب مذكراته اليومية، لا يغفل عن حدث واحد من أحداث عاشها وتفاعل معها، أم أنه ينتقي لقارئه ما له تأثير في تلك الحياة الذاتية فيسلط تلك العدسة عليه، مهتما به ومبرزا له دون سواه؟ أكاد أجزم عن تجربة من خلال قراءات متعددة لنماذج من تلك السير الذاتية أن ذلك النوع الأول غير متوافر ولا موجود في المكتبة العربية؛ حيث إنه ليس بمقدور

١ – د.محمد يوسف نجم: فن القصة ط دار بيروت للطباعة ١٩٥٥م ص٢٧

كاتب مهما أوتي من الحيطة والحرص أن يعرض مثل تلك الحياة، التي لا تهمل موقفا من مواقف حياته دون إثبات وتحقيق، ويبقى ذلك النوع الآخر من الكتابة السيرية، ذلك الذي يقوم كاتبه بانتقاء بعض التجارب الحياتية التي عاشها وتنقل صورة شبه مكتملة عن مرحلة أو عدة مراحل من حياته، حيث يختار أبرز ما فيها ويمثله لقارئه، بما يصور تلك الحياة بشكل يجعل القارئ ملما بها وواقفا عليها ومفيدا منها.

وتبقى الإشارة إلى شيء مهم للغاية فحواه: إذا كان كاتب السيرة الذاتية يجد نفسه مضطرا إلى انتقاء أحداثه التي يقف بقارئه عندها- فما مقاييس هذا الانتقاء؟ أيكون قائما على أهمية الحدث بين أحداث فيها المهم وغير المهم؟ أم يقوم هذا الانتقاء على مدى تأثير الحدث في حياة الكاتب الشخصية حتى أضحى بالنسبة له عنصر تأثير لا يمكن إغفاله أو تجاوزه، دون الوقوف عنده، وتكثيفه، والاعتناء به؟

فلا شك في أن حياة الكاتب عرضة لهذا وذاك كما تكون حياة كل إنسان، ولكن لأن الكتاَّب والمبدعين ينظرون إلى الأشياء رؤية خاصة فتكون لهم فلسفتهم في التعامل مع الأمور، والتماهي مع الأحداث صغيرها وكبيرها، لذا فهم أقدر الناس على عرض تلك الأحداث بما يعكس أهميتها بالنسبة لهم وبالنسبة للآخرين أيضا، فقد يرون الأثر ويستشعرونه في شيء ما بينما غيرهم يمر عليه سريعا فلا يلفت نظره ولا يستوقفه، ومن هنا يمكن القول: إن كاتب السيرة الذاتية ينتقي من الأحداث لسيرته التي عاشها ما له أهمية من وجهة نظره وما له تأثير ملحوظ في تكوينه الفكري والثقافي والوجداني والإنساني بعامة، فتتمحور سيرته حول تلك الأهمية وذاك الأثر الذي تركته فيه الأحداث الخاصة والعامة.

وبمراجعة أحداث سيرة إبراهيم الإبياري الذاتية (مع الأيام) أمكن الوقوف على مجموعة من الأحداث الخاصة والعامة التي سلط الكاتب عدسته عليها، وشكلت مجمل حياته بما تحمل من أتراح وأفراح، واستقرار أو قلق، سواء ما له

اتصال بحياته الخاصة، أو الحياة العامة لمجتمع يعيش فيه ويتأثر بأحداثه، أو مجموعة من القيم والعادات المتوارثة في بيئته ومحيطه الاجتماعي.

وفي الصفحات التالية سنقف بشكل دقيق عند تلك الأحداث وما تعكس من أبعاد الحياة الخاصة والعامة في شخصية إبراهيم الأبياري من خلال تلك المرحلة العمرية التي صورتها سيرته في حياته التعليمية بمراحلها المتعددة.

١- الأحداث الخاصة ذات الأثر في حياة الكاتب:

لما كانت الحياة الخاصة للأفراد جزءا لا يقبل الانفصال عن الحياة العامة في أي مجتمع من المجتمعات- ولا يمكن تصور تلك الحياة العامة بدون تلك الحيوات منفردة أو مجتمعة، كان تناول هذا البعد الشخصي علامة صادقة تعكس شكل الحياة العامة لهذه المجتمعات، فعلى حد تعبير إبراهيم الإبياري نفسه " لن تستوي للوجود العام صفحاته، ولن تكمل له كلماته، إلا إذا استوت له قبل ذلك صفحات الوجود الخاص وكملت كلماته " [(١)]. ومن الأحداث الخاصة في حياة الكاتب ما صورته سيرته الذاتية (مع الأيام) وعبر فيه عن رؤيته الشخصية، ما يجعلنا نقف عنده وقفات فاحصة، لنستخلص منها معالم حياة جيل بأكمله، ومرحلة عمرية عاشها إبراهيم الإبياري، وهاك أثارة منها:

- دنيا الأبناء ودنيا الآباء:

لقد عالج الكاتب في هذه السيرة كثيرا من المواقف والأحداث، وهي - وإن حملت طابعا شخصيا- تعبر عن ظواهر عامة في المجتمع بأسره، سواء في حياة أهل القرى أو أهل المدن، وكأنها قواسم مشتركة بين هؤلاء وهؤلاء، وهذا ما يعطي لتلك المعالجات قيمتها الموضوعية والفنية؛ إذ تكمن فنية الكاتب في عدم تقوقعه على ذاته، أو انكفائه على شئونه الخاصة، لا يتجاوزها إلى غيرها، فتعبيره عن قضايا تمثل هموما مشتركة بين شرائح واسعة من المجتمع هو خير دليل على وعيه الفكري ونضجه المجتمعي.

١- إبراهيم الإبياري: مع الأيام ط مكتبة الآداب١٩٥٩م ص (ج) من التقديم

من ذلك أنه صور لنا بحرفية شديدة جانبا مهما في حياة الأطفال الصغار، وهو نزوعهم إلى الحرية والانطلاق وانتهاب لذات اللعب في شوارعهم وحواريهم ومجالاتهم المتعددة والمتنوعة، وكيف يحرص الآباء على تقييد تلك الحرية من حيث يدرون أو لا يدرون، غافلين أو متغافلين عما بين دنياهم ودنيا هؤلاء الصغار من فروق واختلافات، حيث تتعارض وجهات نظر الآباء – غالبا– مع طموحات الصغار، فبينما يميل الآباء إلى التعقل، يندفع الأبناء الصغار مع الأهواء، يقول الكاتب: " دنييان متباينتان: دنيا العقل والرأي، ودنيا الطيش والهوى، يملك أولاهما الآباء، ويملك أخراهما الأبناء ، يريد الآباء أن يرتفعوا بأبنائهم إلى دنياهم، ويريد الأبناء أن يهبطوا بآبائهم إلى دنياهم، دنيا تفيض بالإرادة الغالبة، ودنيا تضج بالإرادة المسلوبة " [(١)].

وقد صور الإبياري حرص كل طرف من هؤلاء وأولئك على إنفاذ رؤيته، وتحقيق بغيته، سواء بالرضى أو السخط، بالإذعان أو التحدي، فبدايةً كان الصبي إبراهيم " كاللعبة في يد أبيه يحطه حيث شاء فلا يبرح، وينهضه متى شاء فلا يدفع " [(٢)] ثم شغلت أباه الصوارف عن متابعة صغيره، فهو يقيم في المدينة أياما ويبعد عنها أياما " فبدأ الصغير يخرج إلى الحياة التي حرَّمها أبوه عليه خطوة خطوة، وبدأ يكسر تلك القيود قيدًا قيدًا، حتى انتزعته تلك الحياة من أحضان أبيه انتزاعا، وانغمس هو فيها انغماسا" [(٣)] وليُرضِيَ الصغير أباه جعل ميدان لعبه إلى جوار بيته، ولكن أباه راح بين الحين والآخر يقتحم عليه ميدان لعبه، " ويفسد عليه حريته، ويؤذيه في كبريائه ويفوت عليه إرادته "[(٤)] فاضطر الصغير إلى أن يُبعِد بميدان لعبه عن ميدان أبيه، فيخلو إلى لداته ويخلون إليه، فتمتع بهذا البعد

١- مع الأيام : ص ٩
٢- مع الأيام : ص ٤
٣- مع الأيام : ص ٥
٤- مع الأيام : ص ٦

شيئا ما، وعوَّق أباه عن تتبعه، وإذ ذاك راحت الفجوة تتسع بين الابن وأبيه، يزيد الأب في التضييق ويزيد الابن في إفساح المجال لحريته وإراته، ولم ينزع الصغيرَ من لعبه إلا إلحاقُ أبيه له بكتاب الحي الذي يسكنه، ولم يطل به المقام في هذا الكتاب، فسرعان ما تركه بعد أن ذاق ويلات العريف والشيخ، وعوقب أشد العقاب على كسر سن قلمه وتلوث يديه وثيابه من حبارته، فانصرف عن الكتاب لا إلى البيت ولكن إلى شوارع المدينة وأطرافها، يقضي النهار كله بها محاولا نسيان همومه وما لحق به من أذى ومهانة من الشيخ والعريف، وعندما آلمه الجوع، وبدأ يستشعر الخوف من إقبال الليل بظلمته عاد أدراجه إلى بيته " فيجد جمعا لم يألفه ويبصر وجوما لم يعهده.... ولكنه ما يكاد يبصر أباه حتى يرمي بنفسه في أحضانه، وقد تعلق بأهدابه وهو يبكي " (١).

وتصوير الكاتب لعودة الصغير إلى أحضان أبيه وتعلقه بأهدابه فيه دلالة؛ إذ كان بمقدوره أن يبرز لنا أثر غياب الصغير عن البيت على والدته، وهي لا شك ستكون أكثر هلعا وجزعا لغيابه، ولكن كأني بالكاتب يقصد إلى ذلك قصدا، فالقضية التي يصورها محورها والد الصبي لا والدته، فهو الذي وضع القيود والحدود على صغيره وهو الذي يحاول الصبي انتزاع حريته منه انتزاعا، وفي إعادته وارتمائه بأحضان أبيه تخفيف من حدة تلك القيود؛ كأنما يريد أن يمحو أثر هذا التشدد ويثبت أنه إنما صدر من الوالد بدافع الخوف والحرص، وهو كذلك، ولكنه حرص أهوج وخوف مزعج، قد يدفع بالصغير إلى طرق مجهولة ومصائر غير معلومة.

ولكن الكاتب تلح عليه فكرة (دنيا الآباء ودنيا الأبناء)، ونزوع كل منهما إلى فرض إرادته على إرادة الآخر، حتى لو كانت النوايا حميدة، فيصور لنا الوالد وقد راح يتتبع ولده من غير أن يكون حاضرا في المشهد، فبعد انتقال الصغير من كُتَّابٍ أهين فيه وأوذي إلى كُتَّابٍ آخر كان أكثر رضاء عنه وقناعة به، ولكن لم

١- مع الأيام : ص ٢٣

يدم للصغير هذا الرضاء ولا تلك القناعة، فسرعان ما تبددا، وأسفرا عن كراهية وبغض، عندما حدق شيخ الكتَّاب الجديد بالصغير، ولم يحول بصره عنه، ثم استدعاه إليه من مقعده بين الصبية القارئين، ليخبره بأن العصفورة أبلغته بما يشينه عنده، من شرائه الحلوى بمليماته من بائع الحلوى الجوال الذي يبيعها بإدارة مؤشر الحظ، فما توقف المؤشر عند نوع منها كانت من حظ المشتري، حتى لو لم تكن من اختياره؛ إذ كان نفر من شيوخ الآباء يعدون ذلك ضربا من الميسر لا ينبغي للأولاد أن يعملوا به أو يتعودوه في تعاملاتهم، ومع أن الشيخ هذه المرة لم يضرب الصغير أو يعنفه كما فعل الشيخ في الكتاب الأول، لكن موقفه هذا ترك أثرا سلبيا في نفس الصبي؛ حيث راح " يعجب كيف يقحم الشيخ نفسه على حرية الصغار المرحة، يريد أن يقيدها عليهم، وزاد عجب إبراهيم من الشيخ كيف يعنِّي عصفورته بهذا الذي لا طائل تحته " [(١)] ولقد أدرك إبراهيم أن العصفورة التي نقلت الخبر إلى الشيخ لم تكن إلا والده؛ إذ رآه الصبي وقد مر على الكتاب وأسرَّ بحديث إلى الشيخ، وهو ما زعم الشيخ أن العصفورة نقلته إليه.

وكأني بإبراهيم الإبياري يريد أن يقول من خلال تلك الأحداث الخاصة: إن حياة الأطفال أو دنياهم - كما يحلو له أن يطلق عليها- جد مختلفة عن حياة الكبار ودنياهم، وأنها تسير بعفوية وفطرية نحو طبيعة المرحلة، وأن فرض القيود عليهم وتضييق الخناق قد يؤدي إلى نتائج عكسية، وأن ما يشوب تلك الحياة من معايب وسلبيات إنما يجيء عفوا ودون قصد، وأنه لا يستمر مع الوقت، ولا ينبغي أن يعنِّفُوا عليه ويؤاخذوا به مؤاخذة الكبار الذين جرى عليهم القلم، وأن تلك المؤاخذة لا طائل من ورائها ولن يجني الأهل منها سوى النفور والشرود والتمرد، الذي يأتي بنتائج عكسية على خلاف ما يؤمله هؤلاء.

١- مع الأيام : ص ٢٧

- ظاهرة الغش:

ومن الظواهر التي عالجتها سيرة (مع الأيام) ظاهرة الغش في الامتحانات، وكان مدخل الكاتب إلى تلك الظاهرة من خلال موقف شخصي تعرض له صغيرا، وراح يصوره في سيرته الذاتية، مبديا فيه انطباعاته الشخصية، ورأيه في تلك الظاهرة، ولا ينفك رأيه فيها عن موقفه من تشدد أبيه وانتزاعه من ميادين لعبه مع أترابه، وكأن الإبياري يتبنى رؤية نفسية تدور حول وجوب التفرقة بين معاملة الصغار ومعاملة الكبار، وهي نظرة صائبة على كل المستويات، فقد أعطت الأعراف والأديان للصغار مساحة وبحبوحة لم تعطها هذه أو تلك للبالغين والكبار، فلا يزال الصغار في مراحل تكوينهم، لم يكتشفوا بعد، وخير لهم أن نأخذ بأيديهم، وأن نمد أيدينا لهم ونبسطها بالترغيب لا الترهيب، فغدًا تنضج عقولهم وتكتمل أفكارهم، ويميزون بين الخطأ والصواب حينما يكونون في حالة من الاستواء العقلي والفكري والنفسي، وخير لهم وللمجتمع أن يؤخذوا بالعفو قبل العقوبة، وبالتوجيه والنصح قبل العتب والتعنيف.

كان أول موقف تعرض له الصبي إبراهيم عندما أخرجه أبوه من الكتاب وألحقه بإحدى مدارس المدينة، وكانت المدرسة تعقد للمتقدمين إليها امتحانا تحريريا وشفويا في مواد اللغة العربية ومبادئ الحساب على يومين متتاليين، فإذا ما جتاز المتقدم هذه الاختبارات أضيف إلى قوائم التلاميذ، وإذا أخفق رد بإخفاقه، وكان الصغير قد وقف في كتابي الشيخين على شيء من أصول العربية، لكنه لم يقف على شيء من مبادئ الحساب، فعندما تسلم ورقة امتحان الحساب أدرك أنه لم يقف منها على شيء وأنه راسب لا محالة في ذلك الامتحان، وأن عليه أن ينتظر حتى يمضي الوقت ثم يسلم ورقته غير مسودة بشيء، وعندما رأى زملاءه يسلمون أوراقهم مجابة هم بأن يفعل مثلهم لينجو من نظرات الأستاذ الذي راح يرقبه عن كثب، وفي لحظة انشغل فيها الأستاذ بالنظر في أوراق التلاميذ الذين سلموا أوراقهم رأى إبراهيم جاره في الفصل يختطف ورقته في خفة ويدفع إليه

بورقته هو، " ولقد ذعر لها إبراهيم شيئا ما، ولكنه عاد فاطمأن حين لم يجد أحدا قد التفت إليه، ثم اطمأن ثانية حين وجد هذا الجار ماضيا يكتب في ورقتـه، ثـم اطمأن كل الاطمئنان حين وجد ورقته تعود إليه كما أخذت منه " (١).

وفي اليوم التالي كان امتحان اللغة العربية التي وقف إبراهيم على شـيء من أصولها في كتاب الشيخين، فمضى امتحانها على غير ما مضى اليوم الأول " فأنساه سرور هذا اليوم هَمَّ اليوم السابق، وعاد إليه اعتزازه بنفسـه، وأدرك أن المرء جاهل ما لم يتعلم، فإن هو عُلِّمَ فقد أمن سـخرية النـاس بـه واحتقـاره لنفسه"(٢).

وما يكاد ينتهي امتحانه التحريري حتى أُخِذَ إلـى امتحـان شـفوي فـي الحساب، وكادت كبرياؤه تُؤذَى كما أوذيت يومه الأول، لولا ما قدر له من عـون أحد جيران بيتهم من المعلمين، ذاك الذي أشار على والده بإلحاقه بتلك المدرسة، "فلقد هوَّن في السؤال؛وكان في استطاعته أن يشتد، ولقد اكتفى بما يعرف إبراهيم ولم يشأ أن يزيد على ذلك " (٣)،

وبعد اجتيازه هذه الاختبارات التحريرية والشفوية كتب له أن يـدخل تلـك المدرسة.

ولقد راح "إبراهيم" الكبير يعالجما ألمَّ بإبراهيم الصغير من هذين المـوقفين اللذين تعرض لهما يوم الاختبار عند الالتحاق بالمدرسة الابتدائيـة، وراح كـذلك يفلسف إقدام جار الصبي في فصله وجاره في بيته، من المبادرة بتقديم العون له، والأخذ بيده حتى يجتاز ما لم يقف على شيء منه في كُتاب شيخيه، فراح يعرض ما حدث على القانون والعرف والخلق، فيرى أن القانون قد يعاقب على ما بـدر من الصغير الذي سوَّد لإبراهيم ورقة الامتحان، أو المعلم الذي تساهل معه فـي

١- مع الأيام : ص ٤٥
٢- مع الأيام : ص ٤٦
٣- مع الأيام : ص ٤٧

الامتحان الشفوي وكاد يوحي إليه بالجواب، ولكنه يعذو ذلك إلى طبيعة الصغار الحرة التي لا عهد لها بالقانون؛ لأنها تنظر إلى ما فيه من خير، وطبيعة الكبار الواعية حين يخرج بها حب الخير عن حدود القانون، ثم يعرض ذلك كذلك على العرف الشائع، فيراه من وجهة نظر العرف الشائع نكرا، قائلا: " ولكن في مثل هذا الذي دُفع إليه الصغير ولم يبخل به الكبير ما تبيحه المروءة حين تسلم من هذا العرف وتأمن جانبه "(١). ويرى أن ما تورط فيه الصغير وزل فيه الكبير يعد مما يأباه الخلق المكتوب وينفر منه " ولك إلى مثل هذا الذي خف إليه الصغير وشَجُعَ عليه الكبير ما يمليه الخلق الفطري ويرى غيره ضعفا وفتورا "(٢).

لقد فلسف إبراهيم الإبياري إذن هذين الموقفين، ولم يُنحِ باللائمة على واحد من أطرافها، إن اعتبرنا إبراهيم الصغير طرفا فيها؛ إذ لم يكن له دور فيها سوى قبوله بما حدث، فلم تبدر منه أية بادرة، ولم يسع مجرد السعي لوضع نفسه في هذا الموقف، ولكنه ارتضى على كل حال ما منحه جاراه التلميذ والأستاذ، إذ لم يكن بوسعه إلا الرضى والقبول، ولكن أثرها في نفسه مازال قائما حتى وقت كتابة سيرته؛ حيث كبر وكبرت معه تلك المعاني فـ " شبت فيه طبيعة الصغار الحرة، كما شبت فيه طبيعة الكبار الخيرة، وامتلأ وعيا بالعرف، ولكنه لم يخل من مروءة، وأخذ نفسه بهذا الخلق المكتوب، ولكنه لم يَطَّرِحْ خلقه الفطري، وعاش تحمل نفسُه تلك المعاني المجيزة إلى جانب تلك المعاني المنكِرة، يتعادلان حينا، وترجح كِفَّةً كفةٌ حينا آخر، ولكنه كان في الكثير من أحواله يكاد يضم القانون إلى ما يرى ولا يجعل القانون يضمه إلى ما يرى، ما دام يؤمن أنه مع الخير لا يعدوه، ويكاد يملي على العرف، ولا يجعل العرف يملي عليه "(٣).

١- مع الأيام : ص ٤٨

٢- مع الأيام : ص ٤٨

٣- مع الأيام : ص ٤٩

ولقد تماهى تصوير إبراهيم لهذه الظاهرة مع الفطرة الخيرة، حين تقدم لتجهيزية دار العلوم، وكان عليه لينضم إلى هذا المعهد الجديد أن يجتاز اختباره الذي يعقده للمتقدمين في خمسة أجزاء من القرآن الكريم وقليل من الفقه يجب أن يعرفه، وما كان إبراهيم ملما بتفاصيل ما يراد اختباره فيه، غير أن " خليل أفندي " الضابط بهذا المعهد الدرعمي، الذي كان ضابطا بمدرسة إبراهيم الابتدائية الأولى، وقد انتقل إلى مدرسة دار العلوم العليا بالقاهرة- أعانه في اجتياز ذلك الاختبار؛ حيث قدمه لواحد من الممتحنين فرفق به، واجتزأ في اختباره الشفوي ببعض مما يحفظ إبراهيم، وأوائل أبواب الفقه، فاجتازها بسهولة وأجازه الأستاذ طالبا بالمعهد.

إن رؤية إبراهيم الإبياري لتلك الظاهرة فيها كثير من الفهم لطبيعة الحياة الفطرية، التي يجد الإنسان نفسه مدفوعا إليها دفعا دون تكلف ولا تفكير في أية اعتبارات أو حسابات قد ينكرها العرف ويأباها الخلق ويعاقب عليها القانون، وهذا العمق في الفهم والاستواء في التفكير لا ينبغي أن يحيد به الأسوياء عن غير وجهته التي أرادها الكاتب ودفعت إليها الفطرة وبررتها المروءة. إذ يبقى القانون غير مجترح والعرف غير متجاوز والخلق غير مطرِّح مع نوايا الخير وشمائل المروءة والإشفاق على من يستحقه.

- ظاهرة الفقر:

تكاد ظاهرة الفقر تمثل همًّا مشتركا بين فئات عديدة من المجتمع المصري في بدايات القرن العشرين؛ حيث الاحتلال الأجنبي والحكم الملكي الذي يطوق البلاد، ويصنع فوارق طبقية بين البشر، فيتخم الغني بثرائه، ويبيت الفقير على الطوى تحت وطأة فقره، وتظهر آثار ذلك في مستوى معيشة الأسر والأفراد، من صحة أو مرض، وتعليم أو تسرب منه، ورفاهة عيش أو ضيق فيه، وتكاد الطبقة الوسطى في تلك المرحلة تنعدم، إلا من فئة قليلة من صغار الموظفين والتجار والمزارعين وبعض ذوي اليسار، لكن الغالبية العامة من جموع الشعب المصري

كانت ترزح تحت نير الفقر والعوز، وتعاني في سبيل الحصول على ضرورات الحياة، لتدبير ما يبقي للإنسان على حياته وحياة من يعول.

وقد صورت (مع الأيام) بعض آثار ذلك الفقر في حياة الناس، وإن لم يُفْرِط كاتبُها في هذا التصوير، لكنه كان يلمس وترا حساسا ومناطق دالة تحمل بعض هذه الآثار، من ذلك تصوير الصبي إبراهيم لأترابه في الكُتَّاب بهيئاتهم وملابسهم وتصويره هيئة الكُتَّاب نفسه من الفقر وتواضع الحال ما يكشف عن مستوى المعيشة الذي ينضوي تحته قطاع عريض من المجتمع، فمقعد الشيخ لم يكن " غير نشز من الخشب يرتفع أشبارا عن أرض الأطفال، قد غطي بالفرو الرخيص البالي المختلف الألوان، ولم تكن مقاعد الأولاد غير قطع من الحصر البالية، استعانوا عليها هم الآخرون بقطع من الفراء لم يهيئها لهم الكتاب، فالكتاب كان أفقر من يهيء لأبنائه مكانا مريحا " [١].

ورغم أن الصبي إبراهيم لم يكن من أسرة معدمة، بل كان من أسرة مستورة الحال؛ فوالده كان يعمل بالتجارة " ولم يكن رزق الأب واسعا، ولكنه كان رزقا يكفل لهذه الأسرة أن تعيش مطمئنة "[٢] ورغم ذلك الاطمئنان في رزق الأسرة فقد كان مصروف الصغير بالمليم لا القرش، وكان قصاراه إذا حاول الشراء أن يقف على باعة الحلوى الجائلين ليتحصل بما معه من مليمات عديدة وزهيدة على بعض ألوان الحلوى، وحتى عندما شب قليلا وانتقل من الكتاب إلى المدرسة الابتدائية وطالت يده عملة أكبر من المليم وهي القرش " حار إبراهيم بقرشه بين تلك العروض المختلفة بين يديه لا يدري بأيها يلم، ولا عند أيها يقف " [٣] فلقد كان إبراهيم يمثل تلك الفئة المستورة في رزقها، ورغم ذلك كان يعاني في احتياجاته، وكان إذا ألم بقصر زميله "توفيق" ولعبا معا في حديقته لعبا متصلا

١- مع الأيام : ص ١٤
٢- مع الأيام : ص ٣
٣- مع الأيام : ص٥١

حتى تغرب الشمس ثم يفترقان، كان يعود محملا بهموم ثقال، زاهدا فيما عنده إذا قارنه بما عند صاحبه، حتى إذا انطلق في الصباح إلى مدرسته ولقي في الطريق رفاقه الأولين في جلابيبهم، والألواح في آباطهم حينئذ " يذكر الغنى والفقر، ويذكر نفسه بين الأغنياء والفقراء، فلا يكاد يطمئن إلى أنه خير من غيره، حتى يبتئس حين يذكر أن غيره خير منه "(١) ولا يزال حديث الفقر والغنى يخايل عقل الكاتب وفكره، فبعد إتمامه المرحلة الابتدائية بتفوق كان المنتظر أن يلتحق إبراهيم بالمدرسة الثانوية الأميرية، ولكنه فشل في الالتحاق بها، وضمه أبوه إلى مدرسة أخرى أهلية، واستقبل الفتى مدرسته الجديدة غير راض؛ إذ كانت المدارس الأميرية طرازا وحدها لا تدانيه المدارس الأهلية بل كانت " شيئا لا يقوى عليه إلا الأقوياء ولا يرجع عنه إلا الضعفاء؛ لذلك كان العدول عن هذه إلى تلك، يترك لونا من الخزي في نفوس الصغار والناشئين لا يقدرون على دفعه، وهكذا كان الأغنياء يستأثرون بالطريق كله من مبدئه إلى منتهاه، لا يشاركهم فيه الفقراء إلا من بعيد "(٢).

ولقد صورت (مع الأيام) بعض مظاهر الفقر، التي كانت شائعة بين عامة الناس في ذلك الزمان، من ذلك تصويرها لحَذَّاءٍ جوال، كان يقدم إلى الحي الذي يسكن فيه إبراهيم من مدينة طنطا، " كان يحط رحله في ركن ظليل من أركان الحي، وما يكاد يفعل حتى يلقي عن ظهره صندوقه ...... وكان هذا الحَذَّاء يستقبل حرفاءه مع النهار، حتى إذا آذنت الشمس بالمغيب طوى من تحته تلك القطعة البالية من بساط قديم، وطوى من فوقه تلك الظلة المتهتكة من الخيش، وجمع من أمامه تلك الأدوات المتناثرة .... وأودع تلك الأدوات التي يعمل بها

١- مع الأيام : ص٥٥
٢- مع الأيام : ص١٠٨

ركنا من أركان الصندوق ورفعه إلى عاتقه ومضى ... إلى حيث لا يعلم سكان هذا الحي أين يبيت"(١).

وتصور السيرة طبيعة هذا الحَذَّاء وهؤلاء الحرفاء الذين يترددون عليه لإصلاح نعالهم: " كان هذا الحذاء يعمل قليلا ويفرغ كثيرا، وكان ثقيلا حين يعمل، ساكنا حين يفرغ، يتناول ما يقدم إليه من أحذية بالية ليرقعها أو يضم فتوقها، أو يضيف إلى نعلها قطعة من جلد .... ولو كان يملك حرفاؤه غير ما في أرجلهم لهان عليهم تراخيه"(٢).

ولك أن تتصور هذا المشهد من هذه السيرة وفي مدينة مشهورة (طنطا) كيف كان مستوى المعيشة فيها، فالناس لا يذهبون إلى محل مستقر في موضع، معلوم مكانه وزمان فتحه وغلقه، وإنما ينتظرون هذا الغريب الذي يمر ببعض الأحياء، فيأتونه جماعات ووحدانا بأحذيتهم، التي ليس عندهم بدائل عنها، ليعالج رتوقها وفتوقها، فهي في أسوأ أحوالها خير من الحفاء بدونها.

لقد كانت هذه صورة مصغرة، ومعبرة في الوقت ذاته، عن مستوى معيشة غالبية الناس، في ظل عقود الاحتلال وتسلط المستعمر، استطاع إبراهيم الإبياري أن يسلط عليها أدواته الفنية لينقل لنا بشكل غير مباشر مظهرا من مظاهر الفقر في تلك الآونة.

ولم يكن ما يدور من صراع في عقل إبراهيم ناتجا عن حقد أو غيره من الصفات السلبية، التي تلم بذوي الغيرة البغيضة، ولكنه كان يرى نفسه أهلا لكل تميز وتفوق، لا ينقصه شيء عن أترابه من ذوي اليسار، ويأسى لما يلحق به مما لم يكن هو سببا فيه، فلا يدري من الملوم في هذا: أيلوم هو وأمثاله آباءهم أم يلومون المجتمع؟

١- مع الأيام : ص٧٠-٧١

٢- مع الأيام : ص٧١-٧٢

ولكنه كان يجد إلى جانبه الكثيرين ممن هم على شاكلته، وكان يخفف عنه وجودُ بعض القادرين إلى جواره ممن ضاقت المدارس الأميرية عن استيعابهم.

٢- الجانب الاجتماعي بما يحمل من موروثات ثقافية وأعراف وتقاليد:

في هذه السيرة الذاتية (مع الأيام)، بإمكاننا أن نرصد العديد من المواقف والأحداث، التي تعكس بعض العادات والتقاليد والأعراف، التي أضحت جزءا من ثقافة الشعب المصري على مر العصور، ولا يمكن أبدا تجاهلها أو إنكارها؛ لأن لها حضورا في ممارساته اليومية والحياتية بوجه عام، بصرف النظر عن إيمانه بها أو اعتقاده فيها من عدمه، فإيمان المصري واعتقاده الديني راسخ، حتى لو مضت حياته على نحو ما تصوره بعض العادات والتقاليد، فالأمر جد مختلف.

من ذلك ارتباط حياة الأشخاص بالرؤى المنامية، وانطلاقهم في ذلك بناء على تفسير تلك الرؤى، وتفاعلهم مع تلك التفسيرات، فوالد إبراهيم في الورقة الأولى من هذه السيرة يخضع لرؤيا منامية يوم حملت زوجته بابنه إبراهيم، إذ " رأى الأب – فيما يرى النائم – أنه قد تهيأ يستقبل النيل في انصبابه في عام فيض فائض ليحتويه في جوفه، ولكنه ما كاد يفعل حتى فزع لها، فهب من نومه دون أن يتم ما انتوى " [(١)] ثم راح تتمثل له رؤياه في مواطن مختلفة مع النجاح أو الإخفاق، ومع المرض أو الصحة؛ وكأنما اتُّخِذَتْ الرؤيا مشجبا تعلق عليه المواقف في حياة هذه الأسرة؛ فعندما استؤنفت الدراسة بعد أحداث ثورة ١٩١٩م التي كان إبراهيم مع بعض رفاقه من داعميها، وجد نفسه من الطلاب المحرومين ذلك العام، وعاش بقية عامه مفصولا عن المدرسة، فسبب عناء وهَمًّا دائما لوالده؛ فأطلت رؤياه القديمة مع الحدث من جديد، فراح أبوه " يذكر تلك الرؤيا التي رآها مع مولده فيبتئس، ويظن أن ابنه لن يوفق لخير، وأن هذا الذي انتهى إليه إبراهيم تأويل ما رأى" [(٢)] ولذا نرى الكاتب نفسه كأنما انتقل إليه هذا التأثر،

١- مع الأيام : ص١

٢- مع الأيام : ص١

فراح هو الآخر يربط أحداث حياته الأولى برؤيا أبيه المبكرة، بل يطمح أن تسير حياته الجديدة التي لم تتناولها سيرته بعد كما يحب "وبهذا الإحساس ... استقبل إبراهيم حياته الجديدة وهو يذكر تلك الرؤيا التي رآها أبوه. قد عرف تأويلها فيما كان، وأقبل يحب أن يعرف تأويلها فيما سيكون " [١].

لقد جاءت رؤيا والد إبراهيم في الصفحة الأولى من سيرته الذاتية، ومضت مع أحداث السيرة حتى نهاية سطرها الأخير، وفي هذا مؤشر على وجود أثرها من البداية وحتى النهاية، بصرف النظر عمن تمثلت الرؤيا له، فقد امتد تأثيرها إلى محيطه كله، وراح الجميع يرقبون نتائجها وآثارها.

ومن الظواهر الاجتماعية التي علقت بذهن الكاتب (عالم المتصوفة) ذلك العالم الذي لم يكن غريبا عن البيئة الطنطاوية، التي تحتضن مقام السيد أحمد البدوي، وهو وإن لم يرد ذكره في السيرة، لكن تلاميذه كثر، ومدرسته في التصوف قائمة بتلك المدينة، فقد رأى إبراهيم والده، وقد امتلأت حياته بشيء كان له غراما، وكان له به حب متصل، فانعطف الصبي على بيت أحد شيوخ الطريق أو العهد كما كانوا يسمونه، فلزمه في حلقة ذكره بعد صلاة العشاء وبعد صلاة الفجر، وظل على ذلك مدة، يحمل جهد المساء وجهد الصباح، حتى أشبع عاطفته من حلقات الشيخ، ولكنه لم يكمل الطريق إلى نهايته؛ فقد حالت واجباته الدراسية وأعباؤه التعليمية – بعد أن التحق بالمدرسة الثانوية – دون الاستمرار في الطريق الذي بدأه مع الشيخ.

ونلحظ في سرد الكاتب لسيرته أن رفاقه في التعليم ومعلميه كذلك كانوا من العنصر النسائي، وحتى كتاب الشيخين لم يشر إبراهيم الإبياري إشارة واحدة إلى وجود المتعلمات بين صفوفه، إلا من ذكر أختيه الصغريين، حيث ما كادتا تمضيان إلى الكتاب قليلا حتى ارتدتا إلى البيت تعيشان له[٢]. إذ كان حظ الفتيات من

١- مع الأيام : ص١٤١-١٤٢

٢- مع الأيام : ص٩٣

التعليم في تلك المرحلة ضئيلا، تمنع منع عادات وتقاليد، لم يقو على التحلل منها إلا قلة قليلة، أما الغالبية منهن فكانت تركن إلى حياة البيوت لا حياة المدارس.

ومن الظواهر الاجتماعية التي هي جزء من عادات المجتمع المصري- اختلاف الأزياء من فئة إلى فئة، فلكل فئة زيها الذي يناسبها، ويألفها المجتمع به، فمشايخ الكتاب لهم أزياؤهم، وصبيانهم كذلك، والمعلمون بالمدارس لهم أزياؤهم، التي تختلف من معهد إلى معهد، ومن مرحلة إلى مرحلة، فالصبي إبراهيم كان يلبس الجلباب حينما كان يتردد وأترابه على الكتاب لحفظ القرآن الكريم، وعندما قرر أبوه إلحاقه بالمدرسة الابتدائية رأى أن زي الكتاب لا يناسب المرحلة التي سيقدم عليها الصبي، لذا اصطحبه إلى محل من المحال المعروفة فجاء له ببذلة إفرنجية لم يكن يعرفها الصبي من قبل، وعندما تقدم للالتحاق بتجهيزية دار العلوم كانت البذلة والطربوش هما هندامه الذي اعتاده في المدرسة الابتدائية، لكن للمدرسة تقاليدَ مختلفة بشأن الزي، حيث كانت تلزم منتسبيها بلبس العمامة و(الكاكولة) مما ألحق بقلب الصغير همًّا جديدا، يضاف إلى هَمِّ الاغتراب عن مدينته وأهله، وكان مبعث هذا الهم الجديد أنْ " كان أصحابه من حوله ينالون من هذا الزي ويهونون من شأن صاحبه " [١] لذا احتال إبراهيم لأمره حين رأى أحد زملائه يودع معطفا طويلا وعمامة لدى بواب المدرسة، ثم يقوم باسبدال ملابسه، فيخلع ما عليه ويلبس ما أودعه البواب في كل مرة يأتي فيها إلى مدرسته، وهكذا يغدو إلى مدرسته ثم ينصرف عنها، وهو بزيه الأول لم يغير منه شيئا، فيتجنب بذلك الصنيع لقاء نفر من زملائه القدامى الذين يهونون من الزي وصاحبه.

ولقد حسبها إبراهيم حسبة أخرى غير تلك الحسبة؛ فلقد كان يرى الناس بإزاء هذا الزي الدرعمي الأزهري، ما بين مهون منه، ومدافع عنه، ورأى أن كليهما كان مغاليا، وأنه لم يكن يميل إلى كلا الغلوين، وإن مال إلى لبس الجاكتة

١- مع الأيام : ص١٦٣

والطربوش، غير أنه انتقد رأي المهونين؛ لما يحمل من خلفيات تضر بالدين واللغة يقول: " فما أغلى المهونون إلا لينالوا من شيء غير الزي، وهو التهوين مما يحمل هؤلاء من أمانة اللغة وأمانة الدين، يملون عن غير وعي، وهم يحسبون أنهم يحاربون هذا الزي وحده " (١)

فالفرقة في الزي ربما تكون وراءها فلسفة، وقد تكون مقبولة حين لا تحمل غرضا ولا تستهدف تنقيصا وتهوينا، أما حين تحمل شيئا من ذلك فإن العقول لا تستقيم لها، والقلوب لا تستجيب، وحري بالأمم التي تريد أن تجمع أبناءها على رأي أن تجنبهم مثل ذلك الاستهداف المغرض.

ومن الظواهر الاجتماعية التي عالجتها السيرة، ما ينشأ بين الأقارب من خلافات أسرية، كتلك التي حدثت بين عم الصبي إبراهيم ووالده، أو بين "توفيق" وأشقائه بعد وفاة والدهم مع عمهم، ويلاحظ هنا أن الكاتب حينما تعرض للخلاف الناشئ بين والده وعمه لم يذكر أسبابه، ولم يشر حتى إلى مظاهر هذا الخلاف إلا ماكان من رغبة والده في استقلال ابنه بالسكنى بالقاهرة بعيدا عن عمه المقيم بها، ولم يذكر لنا الكاتب شيئا من أسباب هذا الخلاف إلا سبب "الدنيا التي تدخل بين الناس فتفسد عليهم صلاتهم"(٢)، وربما أراد الكاتب أن يحتفظ بخصوصية هذا الخلاف، الذي ربما يرجع وأشباهه إلى ما يقع بين الأشقاء على متاع الدنيا القليل أو الكثير، لكن إخفاء أسبابه على كل حال مع إظهار أسباب الخلاف في مواقف أخرى مشابهة، بعيدا عن محيط الأسرة مما ينتقص من فنية السيرة ومصداقيتها.

أما الخلاف بين أسرة توفيق ذات اليسار وعمهم فقد قام أثناء وجود الأب، وامتد بعده، إذ " كان هذا العم حربا على أخيه – أعني والد توفيق – وما إن مات هذا الأخ عن علة طارئة حتى ظن الأبناء بهذا العم الظنون، وما إن رأوا العم

١- مع الأيام : ص١٦٥-١٦٦
٢- مع الأيام : ص١٧٢

يقصي الابن الأكبر ليكون هو عميدا للقرية، حتى تأكد فيهم هذا الظن، وما إن رأوه يسعى سعيه ليليَ أمر هذا القاصر حتى ازداد هذا الظن توكيدا! " (١).

أرأيت إلى أسباب هذا الخلاف يبديها الكاتب دون تحفظ، ويجاهر بها دون تردد، في حين يمعن في إخفاء أسباب الخلاف بين والده وعمه، ويعَمِّي عليها كل التعمية، ويرجعها إلى أسباب دنيوية غامضة، لم يعلن عنها إو يشر إليها أدنى إشارة، وهل هناك خلاف ينشأ ويقوم بين البشر إلا وأسبابه دنيوية؟!

٣- الحدث التاريخي:

وفي هذا الصدد، سنحاول أن نلم بحدث تاريخي مهم، من تاريخ مصر الحديث، كان للكاتب دور بارز في معايشته وتسجيله، وهو ثورة ١٩١٩م محاولا بذلك التسجيل أن يوقفنا على خصوصية الحدث بالنسبة له، وعموميته بالنسبة لعموم المجتمع المصري المجايل لتلك المرحلة، وواضعا يدنا على شخصية الكاتب المنتمية لتراب هذا الوطن، الغيورة على مقدراته وحريته.

لقد كان مدخل الكاتب إلى رصد أحداث ثورة ١٩١٩م ضد الاحتلال الإنجليزي مدخلا دالا؛ حيث كلف مدرس اللغة العربية طلابه بإعداد درس الإنشاء حول موضوع: (مصري يناجي وطنه) وأعد التلميذ إبراهيم درسه حول هذا الموضوع، مسقطا إياه على نفسه المكلومة، ومخاطبا حقوقه المضيعة، وكرامته المهينة، وحريته المسلوبة، وهو لا يدري أن مصر تموج بتحركات خفية، يتبناها أولو الرأي، ويحركون بها مشاعر العامة للثورة على المستعمر البغيض.

لقد كان تكليف مدرس اللغة العربية لتلاميذه بإعداد موضوع الإنشاء بمثابة التمهيد النفسي للثورة على المحتل، وهو تماه رشيد مع دواعي الوطنية، وقد لاحظ إبراهيم عند انطلاقه في الصباح إلى مدرسته اصطفاف جنود المحتل على جانبي الطريق شاكِّي السلاح، وما اعتاد رؤيتهم على هذا النحو من قبل، فثارت في نفسه تساؤلات مريبة " لقد كانوا على صورتهم تلك التي احتشدوا عليها

١- مع الأيام : ص٨٨

والبنادق في أيديهم ما يثير القلق، ولقد كان في تجهمهم للناس ما يدل على أن ثمة شيئا يخشونه منهم " [١] ولم يكن هذا الشيء إلا موعدا مع الثورة العامة التي انبثقت في مصر سنة ١٩١٩ " دبر لها أولو الرأي ما دبروا طويلا، واستجاب لها الرأي العام بطيئا، ووقف لها المستعمر يصدها عنيفا "[٢] وتلتقي جموع الشعب المحتشدة ضد المستعمر بالقلة المترصدة من جند الاحتلال، ويكون الصدام، فإذا بصيحات المتظلمين يخمدها رصاص المعتدين، ويسقط الناس صرعى بعضهم إثر بعض، وتضحي المدينة كغيرها من المدن المصرية وتمسي على أسى عميق من جراء ما داخلها من حزن على قتلاهم ومصابيهم، وإن هذا الحزن الذي دخل على قلوب الناس فسبب له أذى بالغا، دخل أيضا على نفوسهم فأيقظها وأحياها، وأضحت المدن كلها تضج بالثورة ضد المحتل البغيض، وساروا نحو غايتهم لا يرتدون عنها حتى يبلغوها.

ولقد صور الراوي جموع الشعب وقد وحد حب الوطن أهدافهم، ونظمهم في صفوف متآلفة، فوحد بين صغارهم وكبارهم، وجمع طبائعهم المتنافرة على هدف واحد حتى كأن لم يكن بينها تنافر من قبل؛ فإبراهيم إلى جوار والده على رأي واحد، وإبراهيم إلى جوار معلمه الذي سلبه بعض حريته من قبل وآذاه في نفسه وبدنه، وهما الآن مجتمعان في موقف واحد، تحت راية واحدة هي الثورة على المستعمر؛ لأن الوطن بحاجة إلة ذلك الاتحاد في المواقف، وهو أغنى ما يكون عن التنافر والتباعد.

ولقد رد إبراهيم ما لقيه من قسوة وعنف في الكُتَّاب والمدرسة، أو شدة في المعاملة من أبيه، إلى ما غرسه المستعمر في النفوس من تلك الصفات، وما سببه بتضييقه عليهم، وكبته لحريتهم من آثار سلبية، انعكست بشكل مباشر أو غير مباشر على تعاملاتهم فيما بينهم، ولكن سرعان ما عاد الناس إلى طبائعهم

١- مع الأيام : ص١١٧
٢- مع الأيام : ص١٢١

الأولى، وتناسوا ما كان بينهم من قسوة وعنف، بعدما فطنوا لما أصابهم. يقول الراوي: " وما كاد إبراهيم يفطن لهذا كله، حتى ألقى تبعة هذا كله على المستعمر، وحتى نسي ما كان من ذاك المدرس وحتى عذر الناس من حوله على قسوتهم وعنفهم وبطشهم "(١).

لقد أفسح الكاتب لقضية الوطن مساحة عريضة من سيرته الذاتية؛ تقترب من الثلاثين صفحة، من ١١٥ إلى ١٤٢ من مجمل السيرة التي تقارب المائتين من الصفحات، وهي مساحة لم يمنحها الكاتب لقضية أو ظاهرة أخرى في حياته، مما يجعلنا نوقن بأن ذلك الجيل جيل إبراهيم الإبياري كان مهموما بقضايا الوطن، فراح يغلبها على كل ما عداها.

٥١- مع الأيام : ص١٣٣

المبحث الثاني
بناء الشخصية

لا يقوم عمل فني بدون الشخصيات، التي يُعْتَمد عليها بشكل أساسي في تكوين وإبراز بقية العناصر السردية، فهي التي تصنع الروابط المتينة بين هذه العناصر؛ ولذا عدها أحد الدارسين " القوة المولدة للأحداث، تؤثر فيها وتتأثر بها... وأهم عنصر في البنية الروائية؛ لأنها شبكة تمتد عبر الفضاء الروائي لترتبط الأشياء بعضها ببعض"(١)

وقد عرَّف (معجم مصطلحات نقد الرواية) الشخصية بأنها " كل مشارك في أحداث الحكاية سلبا أو إيجابا، أما من لا يشارك في الحدث فلا ينتمي إلى الشخصيات، بل يكون جزءا من الوصف، الشخصية عنصر مصنوع، مخترع ككل عناصر الحكاية، فهي تتكون من مجموع الكلام الذي يصفها ويصور أفعالها وينقل أفكارها وأقوالها "(٢).

ولابد للشخصية من أن يكون لها دور في العمل السير ذاتي أو الروائي بوجه عام، وهذا الدور يمكن تصنيفه داخل ذلك العمل، بحسب أدائه فيه؛ لأن الأدوار متعددة ومختلفة تبعا لأهمية الشخصية في الأحداث ومحوريتها فيها أو هامشيتها، ومن هنا يمكن لمن يرصد أي عمل روائي أو سير ذاتي أن يقف على أنواع مختلفة للشخصية، فهي إما أن " تكون رئيسية أو ثانوية أو صورية؛ حاضرة أو غائبة، متطورة (تتغير أوضاعها ومواقفها) أو جامدة؛ متماسكة (لا تناقض بين صفاتها وأفعالها) أو غير متماسكة؛ مسطحة (صفاتها محددة وأفعالها

١- مصطفى الكيلاني: الأدب الحديث والمعاصرة إشكاليات الرواية ط المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ثبت الحكمة ١٩٩٠ ص١٣١

٢ - لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان دار النهار للنشر، لبنان ط١ ٢٠٠٢م ص١١٤

مرسومة أو متوقعة) أو ممتلئة (مستديرة: متعددة الأبعاد، قادرة على أن تفاجئ الآخرين بسلوكها " (١).

وجدير بالذكر في ظل هذا الاختلاف والتنوع في أدوار الشخصية أن نشير إلى أن الشخصية في السيرة الذاتية جد مختلفة عنها في الرواية، ومدار اختلافها يكمن في واقعيتها الشديدة، فلا مساحة فيها للخيال؛ لأنها تنقل واقعا للقارئ لا مجال لتغييره أو تزييفه، وإلا فقدت أهم عنصر من عناصرها وهو الصدق الواقعي، الذي يترتب عليه الصدق الفني.

ومن الضروري لكل عمل سير ذاتي أن ينهض بناؤه على شخصية رئيسية، تكون هي محور الأحداث، منها ينطلق الحدث، وإليها يرجع، ومن الحتمي كذلك أن يحيط بها شخصيات أخرى ثانوية أقل همية من الأولى؛ لمحدودية أدوارها، وثانوية حضورها في العمل السردي، وهي تدعم الشخصية الرئيسية في عملية بناء النص واكتماله.

الشخصية الرئيسية

اعتاد بعض كتاب السيرة الذاتية على إيقاف القارئ – منذ البداية– على طبيعة أعمالهم السردية، بما يجعل القارئ بداية على يقين بأن ما يقرؤه سيكون من قبيل الترجمة الذاتية لصاحب العمل السردي، وربما أغفل بعض هؤلاء الكتاب ذلك، فتركوا قارئهم يكتشف بنفسه طبيعة العمل الأدبي الماثل بين يديه، وهذا العمل السردي (مع الأيام) لإبراهيم الإبياري واحد من تلك الأعمال، فصاحبه مؤرخ ومحقق معروف، وله في مجال الكتابة التاريخية مؤلفات عديدة تتسم بطابعها الأدبي، وبأسلوبها الفني، الذي يقربها من الأعمال السردية الروائية، لولا ما يغلب عليها من الطابع التاريخي المحقق، لأمكن عدها من قبيل تلك الأعمال، من ذلك مجموعته التاريخية الرائعة (مغيب دولة –ميلاد دولة – نهاية المطاف – قيام دولة – أمة واحدة) والتي تكاد تكون سلسلة تاريخية متصلة الحلقات تنتهج

١- السابق ص١١٤

الطابع القصصي والأسلوب الفني، ولولا سمتها التاريخي لصنفت ذلك التصـنيف، من هنا لا نعفي الواقف على سيرة (مع الأيام) من ذلك الخلط، حتى يقـف علـى جلية العمل بالشروع في قراءته، حينئذ يدرك أنه أمام عمل مختلف عن طبيعة ما يكتب الإبياري، وإن التقيا في جانب الأسلوب الأدبي القشيب.

ويأخذنا الحديث من السيرة إلى كاتبها، أو راويها وبطلهـا، الـذي يمثـل بالنسبة لنا الشخصية المحورية فيها، وهي شخصية "إبراهيم"، وقد وقفنـا علـى كثير من معالمها في بنية الحدث السِّيرِي، وكان أظهر تلك المعالم أن هذا الصبي كان بكر أبويه، وأنهما رزقاه، وجاء ذلك مرتبطا برؤية منامية، رآها الأب، وحار في تفسيرها، ذلك أنها تحتمل الخير والشر، ويمكن توجيهها مع الأحداث حسـبما تجود به، فإن جادت بخير عُزِيَ إليها، وإن جادت بشر غزي إليها كذلك، ولكـن الأمل في المولود الجديد راح يُغَلِّب جانب الخير على جانب الشر، إلا إذا ضـاقت الأمور، وتمخضت عن يأس من انفراجها، حينئذ تلح التفسيرات المرجأة، وتعلـن عن نفسها من جديد.

وراح الأبوان يفيضان على الصغير من حبهما، ويمنحانه من حنوهما مـا يستطيعان، وما إن درج الصبي مدرج الصبيان، حتى ألحقه أبوه بكتاب الحي الذي يسكنونه في مدينة "طنطا" وما لبث بعد مدة وجيزة أن غادر الكتاب إلى آخر، ثـم غادر الآخر بعد أن حفظ من القرآن الكريم بعض أجزائه، وألـم بـبعض مبـادئ الحساب، والإملاء، وموضوعات المطالعة، ثم انتقل إلـى المدرسـة الابتدائيـة، وأنهى أعوامها، راضيا أو ساخطا، ودفع به أبوه إلى المدرسة الثانوية، وقضـى بها عاما، ثم مُنِع عنها، بسبب مواقفه المؤيدة لثورة ١٩١٩م ، ثم توسـط لـه بعض المعارف لإلحاقه بتجهيزية دار العلوم، ومن ثم التحق بعد سِـنِيٍّ دراسـتها بدار العلوم العليا، وتنتهي رحلتنا مع إبراهيم عند هذا الحد، وهو في كـل تلـك المراحل يحدثنا عن مواقفه القلقة في أطوار تعليمه، وعلاقاته بزملائه، وأصدقائه، ومعارفه، ومعلميه، وشيوخه، رضي عمن رضي منهم، وسـخط عمـن سـخط،

محاولا في مراحله كلها البحث عن حريته، التي ضاقت مساحتها بتضييق أبيه، وبعض شيوخه ومعلميه، رابطا في هذا التضييق بين طبائع الآباء المتشددة وطبائع الاستعمار المستبدة، التي نضحت على سلوكيات الأباء، موهمين أنفسهم أن من وراء ذلك صالح أبنائهم.

الشخصيات الثانوية في السيرة:

تكاد شخصيات السيرة الذاتية لإبراهيم الإبياري تتوزع بين عدة اتجاهات أو محاور، منها شخصيات يمتد دورها ويتنامى منذ البداية وحتى النهاية، كشخصية الأب، ومنها شخصيات ينتهي دورها بانتهاء موقف أو عدة مواقف، كبعض معلميه، وعمه الشقيق، وشيوخ الكتاب، ومنها شخصيات ثانوية، ولكن لها دور في تعليمه وتثقيفه، كشخصية الحَذَّاء المثقف، والأستاذ حسن المعلم بدار العلوم، ومنها شخصيات زملائه وأصدقائه مثل رفاق الكُتَّاب، وزميليه توفيق وأحمد وغيرهما، وكل هذه الشخصيات كان لها دور مًّا في اكتمال بناء النص السردي، وتسيير الأحداث نحو نهايتها. ويمكن تقسيم تلك الشخصيات إلى فئات:

أولا: الأسرة:

تظهر ارتباطات الكاتب الأسرية منذ الجملة الأولى في سيرته "كان بكر أبويه"، ويمكن اعتبار هذه الجملة الافتتاحية، بمنطوق علماء البلاغة ونقاد الأدب من براعة الاستهلال، حيث يريد الراوي من البداية أن يرسخ في أذهان المروي لهم محور السيرة كلها، حيث لا تعدو أن تكون علاقة مشتركة بين ولد وأبويه، تحمل كل مشاعر الحنو، والحرص، والدأب، من أجل تنشئة الوليد الجديد تنشئة، تحقق للأسرة آمالها واستقرارها.

ولكل واحد من قطبي الأسرة (الأب والأم) ملامح ومعالم، قد تختلف أو تتفق، لكنها تصب في النهاية في قالب واحد هو حب الصغير ورعايته "وقد طابت نفس الأب بهذا البذل، كما طابت نفس الأم بهذه الرعاية، طيبا تمليه الأبوة وتمليه

الأمومة طبعا وإلهاما، وطيبا يمليه أمل حل في قلب الأب يوم حل هذا الوليد جنينا في بطن أمه"(١).

ولقد أطال السارد في سرد معالم شخصية أبيه ، كأنما كان شريكه رغما عنه، بواقع من سلطته الأبوية في كل مراحل حياته؛ حيث أراد له أبوه أن يكون كما يشاء هو للصبي، لا كما يريد الصبي لنفسه، وما يملك الصبي أن يخرج عن طوع أبيه، فمواعيد لعبه وأماكن هذا اللعب ورفقاؤه خاضعون لإرادة أبيه لا إرادة الصبي، وشيوخه وملابسه وأصدقاؤه يسيرون باختيارات أبيه، أو برضائه إن اختارتهم الظروف له، فهو المحرك لمؤشر وقته، والمدير لعجلة تحركاته، مما كان يدفع الصبي إلى التبرم والضيق من تضييق أبيه، ويكاد يحملنا الراوي على مشاركته في دائرة التبرم هذه، ويدفعنا للسخط معه من ملاحقات أبيه وتضييقاته، ويثير في أنفسنا تساؤلات نبحث لها عن إجابة: ما دافع هذا التضييق، وذلك التتبع، وتلك الملاحقة؟ أهو مجرد الحنو الزائد والحرص الشديد على بكر أبويه، أم أن شدة الأب في معاملة ولده نابعة من دوافع أخرى؟ ولا نكاد نجد إجابة شافية عن تلك التساؤلات على مدار الأحداث، إلا عندما يريحنا إبراهيم نفسه من ذلك العناء، في إطار معالجته لثورة المصريين في ١٩١٩م ضد المستعمر؛ إذ راح والد إبراهيم يصده صدا عنيفا عن المشاركة في تلك التظاهرات الطلابية، ولم يفلح هذا الصد مع إبراهيم، وإنما زاده إصرارا وتصميما على المضي في طريقه الذي رسمه لنفسه ووضعته فيه الأحداث، وما زال الصراع قائما بين الأب وابنه، فـ " مضى إبراهيم يلاين أباه مرة ويخاشنه أخرى، ومضى أبوه يقسو عليه مرة ويلطف به أخرى، حتى استقامت الحياة بين الأب والابن على ما يريد الابن، وسكت الأب عنه، يدعو له ويسأل له السلامة "(٢).

١- مع الأيام ص١

٢- مع الأيام ص١٢٨

لقد فسر لنا إبراهيم دوافع اعتراض أبيه على مشاركته في الثورة، ودوافع تضييقه عليه في تربيته، وممارساته الحياتية، بأنه صدى " لذلك العنف الكبير الذي أرهق به المستبد الكبار؛ فأرهق به الكبارُ الصغار، ولقد فسروا ذلك الخوف الذي امتلأت به نفوس الصغار من الكبار، بأنه امتداد لذلك الخوف الذي امتلأت به نفوس الكبار من الطغاة " [١].

لقد أجاب السارد عن تساؤلات مخاطبيه- وإن جاء ذلك متأخرا بعض الشيء- لكنه أزال آثار ما بقي في نفوسهم من تبرم، وكأنما أراد بدافع من حبه لأبيه وتقديره لموقفه ألا يترك قارئه يفرغ من متابعة السيرة وفي نفسه شيء منه من جراء عنفه وقسوته على ولده.

وأما شخصية الأم في هذه السيرة، باعتبارها القطب الثاني من قطبي الأسرة، فقد اتخذت ملمحا مختلفا عن شخصية الأب، فقد ظلت طول الوقت متوارية تأوي إلى الظل، فلا تطل في كل مناسبة، ولا تظهر في كل موقف، وكأنما اعتمدت على رب الأسرة في تدبير شئون أولادهما؛ إذ هذه مهمة رب الأسرة، وهو بها كفيل وجدير، فبدت شخصيتها مطيعة على الدوام لزوجها، معتمدة عليه في كل شيء، لا تبدي اعتراضا على لون من ألوان المعاملة الأبوية تجاه صغيرهما، ولكن هل يعد ذلك سلبية منها أم أنه ثقة تولدت في حكمة الأب وحسن تدبيره؟ قد يكون هذا أو ذاك أو هما معا.

فالأم هنا لم تظهر إلا في موقفين اثنين لا ثالث لهما: حين غضب إبراهيم من الشيخ الذي آذاه في الكتاب، بسبب ما نُمِي إليه، من نسيانه اللوح، وتحبير ثيابه ويديه، من أثر محبرته، فعاد رفاقه إلى بيوتهم بعد انصرافهم من الكُتَّاب، بينما إبراهيم لم يعد، وظل يومه كله حتى غياب الشمس طوافا بضواحي المدينة النائية عن مسكنه، حتى إذا أمضَّه الجوع، وألمَّ به الخوف عاد أدراجه إلى منزله، ليجد أسرته قد استنفدت كل حيلها للعثور عليه، والوقوف على سبب غيابه، وقد

١- مع الأيام ص١٢٩

أخذ القلق من أبويه كل مأخذ، وتحولت قسوة أبيه وغلظته إلى شفقة ورقة، وهنا تظهر الأم المتوارية طول الوقت؛ لتعلن عن مشاعر الأمومة بعامة، ومشـاعرها كأم لصبي متغيب عن المنزل، يقول السارد مصورا تلك المشاعر: " أوشـكت الأم أن تُعْوِل، كما أوشك الأب أن يبكي، وأوشك المتصلون بهما من قرب أو بعـد أن يشاركوهما هذا العويل وذلك البكاء " [١].

ولاحِظْ كيف وُفِّقَ السارد في وصف كلٍّ بما يناسبه، فالعويل للأم بينما البكاء للأب؛ لأن المرأة بطبيعتها أكثر جزعا، وأقل ثباتا من الرجل، فيناسـبها العويـل، بينما الرجل إذا اشتدت عليه المصائب وقهرته الظروف يبكي ولا يصرخ.

وأما الموقف الآخر الذي ظهرت فيه أم إبراهيم، فهو عند انتقال الصبي من الكُتَّاب إلى المدرسة، ففي أول يوم دراسي " يصبح إبراهيم مبكرا ليـرى طعامـه معدا فيلتهمه عجِلا، وليرى حلته منشورة، فيأخذ في ارتدائها، يعينه أبـوه حينـا وتعينه أمه حينا " [٢].

وبملاحظة الموقفين اللذين ظهرت فيهما الأم نجد أن ظهورها كان في الأول ظهورا فطريا بدافع غريزة الأمومة، وما ينتاب الأم من خوف شديد على صغارها إذا ألم بأحدهم مكروه، وأما الموقف الآخر فكان أيضا لعاطفة الأمومة دور فيـه؛ حيث الابتهاج الشديد بصغيرها الذي يتهيأ لمرحلة دراسية جديدة، في هيئة جديدة لم يعتدها الأهل من قبل. وكأني بالسارد يريد أن يؤكد بطريق غير مباشـر علـى سلطوية الرجل في تلك المرحلة من العصر، حيث كان وجوده يهمش الزوجة إلى حد كبير، إلا ما تسمح لها الفطرة به، ولا تقدر سلطة رب الأسرة علـى حجبـه، ومن هنا ظهر دور الأم في حياة إبراهيم بقوة دون أن تعلن عنه مواقف كثيـرة، وإنما أعلنت عنه مشاعر فياضة بالحب والعطاء يمثلها قول السارد: " لقد أحبتـه كما أحبه الأب بكرا وزادت، ولقد كادت ألا تبيح له أن يفارقها إلى الطريق حـين

١- مع الأيام ص٢١

٢- مع الأيام ص٣٤

فارقها هذان الأخوان إلى طريق آخر، ولم تنسه بهاتين البنتين؛ لأنه قد شغل قلب الأم به، ولقد عوضته بما نقصته من حبها إياه لتعطيه لأخيه، احتراما له وتقديرا"(١).

ولقد أشارت (مع الأيام) إلى أم أخرى إشارة عابرة مقتضبة، هي أم توفيق صديق إبراهيم في المدرسة الابتدائية، فبعد وفاة والده لم تستقم له حياته المدرسية، ويعلل السارد لذلك قائلا: " لأن الأم التي انتقلت معه لترعاه، انتقلت عنه بعد أعوام ثلاثة لتتركه في ظل أخ جذبه إلى دنياه الفارغة "(٢). لقد جلل الغموض انتقال هذه السيدة، فلا ندري أي نوع من الانتقال هو؟ أهو انتقال إلى حياة دنيوية أخرى، أم انتقال بالموت – وهو ما أرجحه – عن دنيا الأحياء؟ والشاهد هنا أن الكاتب لم يمنحنا أية فرصة للميل إلى أحد الانتقالين، فتركنا نختار لها الانتقال الذي نراه، وقد نصيب فيه أو نخطئ؛ لأنه لم يقدم لنا من طبيعة الشخصية وملابساتها في ظل زوجها وحتى بعد رحيله ما يجعلنا نحسم أمر انتقالها إلى هنا أو هنالك.

وتبقى ملاحظة لا بد من الإشارة إليها ونحن بصدد هذا الحديث، وهي غلبة الشخصيات الذكورية على الشخصيات النسائية كما وكيفا على مدار السيرة كلها؛ فشخوصها جُلُّهم من الرجال والصبيان على اختلاف طبائعهم ومشاربهم وفئاتهم، وأن العنصر الأنثوي لم يأت فيها إلا على استحياء، كأم إبراهيم، وأختيه، وأم توفيق، اللائي لم يشغلن جمعاوات من حيز السيرة ما يمكن أن يكمل صفحة واحدة متناثرة هنا أو هناك، على حين استوعبت السيرة كلها حياة الرجال والصبيان، وأفاضت في الحديث عنها ووصفها بأريحية ودقة، فهل يمكن أن يشير ذلك إلى شيء من قبيل ما تعرضت الدراسة له قبل قليل؟!

١- مع الأيام ص٩٥
٢- مع الأيام ص٨٣-٨٤

وأما عن باقي شخصيات أسرة إبراهيم التي ورد ذكرها في السيرة، فلم ينبئنا إلا عن أخوين له، جاءا بعده، ولكن الموت اختطفهما صغيرين، وأعقبتهما أختان لم يذكر عنهما أية تفاصيل، وأعقب الأختين أخ أصغر، ضمه الكتاب بين صفوفه كما ضم أخاه إبراهيم من قبل، ولم يحدثنا عنه بأكثر من ذلك؛ مما يجعلنا نجزم بأن الاهتمام كله كان موجها لإبراهيم دون سواه من أخوته.

وفي محيط الأسرة أيضا عمٌّ لإبراهيم، شقيق والده، الذي يقيم بالقاهرة، وقد استقبل ابن شقيقه حين التحق بتجهيزية دار العلوم، واستضافه في مسكنه، ثم شب خلاف بين الأخوين استقل فيه إبراهيم بمسكن بإرادة والده، ثم استقامت الأمور بين الشقيقين، فعاد إبراهيم لمسكن عمه من جديد، ثم ما لبثت أن " عادت الحياة فأفسدت ما بين الأخوين ثانية، فسادا طويلا شقي به البيتان جميعا " [(١)].

لقد قدم السارد شخصية هذا العم عارية عن اسمه، فلم يوقفنا منه إلا على درجة قرابته، ولكنه لم يترك لنا الشخصية غفلا من ذكر بعض صفاتها؛ وإنما أفادنا بأن العم كان على نهج شقيقه: والد إبراهيم، حِدَّةً وتحفظا وحيطة، حتى أدرك إبراهيم أنه تحرر من قيود والده بمدينة طنطا، ليرسف في قيود عمه بالقاهرة. وربما كان في هذا التوافق بين الشقيقين في الحدة، ما يبرر ما ينشأ بينهما دوما من خلاف.

ثانيا: الأصدقاء:

لقد تناول الراوي في سيرة (مع الأيام) مجموعة من الأصدقاء لبطل السيرة، منهم من كانوا رفقاءه في مرحلة ما قبل التحاقه بالكتاب، ومنهم رفقاؤه فيه، ومنهم كذلك زملاء وأصدقاء دراسته في المرحلة الابتدائية، والثانوية، ومن هؤلاء جميعا من ذكرهم الراوي بأسمائهم كصديقيه أحمد وتوفيق، ومنهم من ذكرهم بلا أسماء، واكتفى بوصفهم كرفقاء وأتراب، وزملاء في اللعب في الحي الذي يسكن فيه، أو بالكتاب الذي يتردد عليه، فرفقاء طفولته الأولى كانوا لداته

١- مع الأيام ص١٧٥

الذين " يواجهون دنياهم الصغيرة بأعوادهم الغضة التي لم تجف، وعقولهم الضعيفة التي لم تنضج " (١) وهو أحيانا يدعوهم بالأطفال وأحيانا بالصغار أو بالأولاد وأحيانا أخرى يصف رفاقه بالتلاميذ، وذلك بعد أن انتقل من الكتاب القديم الذي يفترش الأطفال فيه الأرض، إلى كتاب جديد " تضمهم فيه فصول أو شبه فصول، ولهم مقاعد خشبية ترتفع بهم عن الأرض التي افترشها في كتابه عاما وبعض عام " (٢) ثم راح بعد هذا الانتقال يميز هؤلاء من أولئك بالقدامى والجدد، ولا أرى الراوي يغفل أسماء رفقائه في هذه المرحلة المبكرة إلا لإيغالها في البعد من ناحية، فغالبا ما تكون مرحلة الطفولة المبكرة عرضة للنسيان، ومن ناحية أخرى لكثرة الرفقاء بها، فقد لا يعلق من أسمائهم شيء في تلك الذاكرة الغضة التي لم تنضج إلا بعد حين، لكن المراحل التي تلتها كانت أكثر نضجا وثباتا واستعصاءا على النسيان؛ لذا ذكر فيها بعض هؤلاء الرفاق، الذين ارتبط بهم.

وربما قام هذا الارتباط وقامت تلك الصداقة بين إبراهيم ورفاقه بناء على تمحيص واختيار وتوافق في المشارب والميول لدى كل منهم كتلك الصداقة التي نشأت بينه وبين زميله أحمد، فقد كان كلاهما محبا للقراءة، شغوفا بها، تواقا للوقوف على مواردها بالمدينة التي يسكنانها، وربما نشأت هذه الصداقة وامتدت أواصرها بسبب موقف حتم وجودها واستمراريتها، كما حدث مع صديقه توفيق، الذي أعانه في اختبار القبول بالمدرسة الابتدائية، وتحديدا في يوم اختبار الحساب، فحملها إبراهيم في عقله وقلبه، وعدها من ألوان المروءة التي لا تتوافر إلا لصديق مخلص، ومن هنا قامت تلك الصداقة بين إبراهيم وتوفيق.

ولقد صور الراوي علاقة إبراهيم بهؤلاء الأصدقاء، ومدى تعلق الذاكرة بهم على أشكال مختلفة: فأصدقاء الكُتَّاب، يلتقون إبراهيم بعد انتقاله إلى المدرسة الابتدائية، فيحدثهم حديثا مزيجا من الواقع والخيال بشأن مدرسته الجديدة؛ فكبر

١- مع الأيام ص٤
٢- مع الأيام ص٢٣

إبراهيم عندهم وصغروا هم عند أنفسهم، لما أحسوا بينهم وبينه مـن فـوارق، تميزه عنهم شكلا ومضمونا؛لذا "انصرفوا عنه غير راضين بما هم فيه، وانصرف عنهم راضيا بما سيصير إليه" [١].وتنتهي صداقة إبراهيم برفاقه القدامى عند هذه المرحلة، فلا نرى أثرا لها في حياته من بعد.

وفي إطار الأصدقاء القدامى أيضا، نرى إبراهيم يتذكر صـغيرين، تعـرف إليهما قديما، كانا يأتيان من القاهرة مع أسرتهما ضيفين على قريب لهما في هذا الحي الذي يسكنه إبراهيم بمدينة طنطا، "فإذا إبـراهيم لا يكـاد يفارقهمـا، وإذا إبراهيم يكاد يختطفهما من أحضان أقاربهما، وإذا إبراهيم يسعى بهما هنا وهناك، لا يدخر وسعا في إيناسهما،وما نسي إبراهيم؛ وما أظنه سينسى – على الرغم من تقلب الأيام ومرور الأعوام – يوم بكر هذان الصغيران يصحبهما أبوهما ليعـودا إلى بلدهما "[٢].

لقد مضى إبراهيم خلف صديقيه يودعهما بنظراته، حين وارتهمـا محطـة القطار، ثم عاد إلى بيته متخاذلا شبه مهموم، فإبراهيم هنا غيره هناك مع رفاقـه القدامى، ولعل اغتراب هذين الضيفين ووفادتهما من القاهرة كان وراء اهتمامـه بهما، فالنفس غالبا ما تبدي اهتمامها بكل غريب، وكل عائد من غيبة.

ونمط ثالث من الأصدقاء تمتد علاقة إبراهيم به، ويحرص على اسـتمرار تلك الصداقة، حتى بعد انقضاء أسبابها، وانقطاع أخبارهـا، كصـداقة إبـراهيم بتوفيق؛ فقد امتدت تلك الصداقة إلى أقصى مدى لها، فقـد راح إبـراهيم يتـابع السؤال والاطمئنان على صديقه "توفيق" بعد أن تطورت حياته إلى الأسوأ، وساءه أن تنها صحته وتقربه من نهاية حياته، فما كاد إبراهيم يـدخل امتحـان عامـه النهائي بمدرسة دار العلوم العليا حتى يدخل صديقه توفيق القبر.

١- مع الأيام ص٣٧

٢- مع الأيام ص٩٦-٩٧

لقد صور لنا السارد شخوص هؤلاء الأصدقاء، ورسم لنا معالم هذه الشخصيات، من خلال ما قدم من وصف، يبين عن تلك المعالم، وطبيعة هذه العلاقات التي كانت تنتهي عند مرحلة معينة، أو تستمر حتى آخر العمر، ولولا أن هؤلاء الشخوص كانوا بمنزلة معتبرى لدى الراوي الذي هو السارد والبطل في الوقت نفسه – لولا ذلك ما صورهم ذلك التصوير، ولا رسمهم لنا على تلك الصورة.

ثالثًا: المعلمون:

لقد صورت (مع الأيام) شخصيات المعلمين بطرائق مختلفة، بداية من شيوخ الكُتَّاب، وانتهاء بأساتذة دار العلوم العليا، فشيوخ الكتاب كانوا على هيئات متقاربة، شكلا ومضمونا، فصاحب الكتاب كان " شيخا قد جاوز السبعين بقليل، ذا عود فارع، غير أن الكِبَرَ قد طوى طرفيه "[(١)] ولقد التحق الصبي إبراهيم بكتابين، ولا يكاد شيخاه يختلفان في شيء من مظهرهما الخارجي، وطباعهما عن بعضهما البعض، فالقسوة قاسم مشترك بينهما، والاعتماد على العريف في إدارة أمور الكتاب، ومتابعة الصبيان، بتقديم أحدهم وتأخير الآخر، كل ذلك من مهام العريف عند الشيخ، ولم يستطع الصبي إبراهيم التأقلم مع هذا الجو، ولم يتحمل عقاب الشيخ في الكتاب الأول، فنقله أبوه إلى شيخ آخر، سرعان ما أحس بالنفرة منه كما نفر من الأول، وعندما لاحظ أبوه ذلك نقله لا إلى كتاب ثالث، بل إلى المدرسة الابتدائية لينتقل إلى شكل جديد من أشكال التعليم، يكون أكثر انضباطا، وأوفر معرفة وتنوعا.

وأما المعلمون النظاميون فلا شك في أنهم مختلفون عن هؤلاء الشيوخ شكلا ومضمونا أيضا؛ فأزياؤهم مختلفة، فبعضهم زيه العمامة والكاكولة، وأغلبهم يرتدي البذلة والطربوش، وهو ما كان يسمى بلبس الأفندية، وقد كانوا أكثر وعيا بقضايا المجتمع، وتوفرا على طرق ومناهج التعليم، التي تجذب التلاميذ إلى

١- مع الأيام ص١١

التلقي، وترغبهم في الانتظام بمدارسهم، فالراوي يميز بين هؤلاء وأولئك، من خلال وصفه للأستاذ الأول، الذي أشار على والد إبراهيم بإلحاقه بالمدرسة الابتدائية، وإنهاء صلته بطريقة الكتاتيب البدائية، لقد كان هذا الأستاذ جارا لهم في الحي، ومعلما بإحدى مدارسه، يصفه الراوي فيقول: " له قدره ، وله مكانته، يدرس في المدارس الحكومية ملحوظ، مشهود له بالذكاء، معروف بالخير يسعى إليه ويدل عليه، وكان يرى أبناء الحي كلهم أبناءه، يقصد إليه الآباء يطلبون عنده المشورة، ويقصد هو إليهم يبذل لهم المشورة " (١).

فهذه الصفات تدل على شخصية مسئولة، مثقفة، واعية، صاحبة رسالة، تستهدف الخير، وتسعى إليه، ومن هنا انجذب الصغار في الحي نحوه رغم انضباطه وجديته، وقسوته الراحمة وعطفه الرائد فأحبوه، " فكان لا يمر بهم غاديا أو رائحا إلا أمسكوا عما هم فيه إكراما له وأنسا به، وكان أشدهم به تعلقا إبراهيم "(٢).

ولقد كان من نزوع هذا المعلم إلى الخير، ووعيه الراشد، أن سهل لإبراهيم سبيل الالتحاق بالمدرسة واجتياز اختبارها الشفوي، حين لم يسأله إلا فيما يقدر عليه؛ آخذا بيده، لمنحه فرصة الالتحاق والثبات بأولى مراحله التعليمية. كل ذلك يبين الفرق بين مرحلة ومرحلة، ومعلم ومعلم.

ولقد ظلت شخصية المعلم في ذهن إبراهيم على تلك الشاكلة، وهذا النحو، في مراحله المختلفة، حتى وإن بدت بوادر خلاف بينه وبين أحد معلميه، بسبب ظن إبراهيم أن معلمه هذا قد سلب حريته، حين خاطبه بشكل لا يليق، ولم يقبل منه الدفاع عن وجهة نظره، وظل إبراهيم يتحفظ في تعامله مع ذلك الأستاذ، ويستاء من موقفه السلبي تجاهه، ولكن ذلك الموقف سرعان ما تلاشى عندما رأى إبراهيم ذلك الأستاذ إلى جواره جنبا إلى جنب في أحداث ثورة ١٩١٩م

١- مع الأيام ص٣١-٣٢

٢- مع الأيام ص٣٢

المطالبة برحيل المستعمر، حينئذ أدرك إبراهيم أن الثورة ضد المستعمر وحدت المتنافرين وقربت المتباعدين في الرؤية والمنهج، " فإذا هو فيها إلى جانب هذا المدرس الذي آذاه، وإذا هما أشبه بصديقين؛ على اختلاف السن، وعلى اختلاف المنزلة، وإذا هذه الهيبة الحاجبة بين الصغار والكبار، يحل مكانها هذا الأنس الجامع بين الصغار والكبار، وإذا إبراهيم يملك أن يناقش أستاذه في كلام طويل، وهو الذي عز عليه منذ حين قريب أن يقول له كلمة واحدة "(١).

لقد سلط الراوي عدسته على شخصيات معلميه، فاحتلت مكانة مميزة من هذه السيرة، وربما كان هذا الاهتمام ناتجا عن أن السيرة كلها عبارة عن وصف لمعالم حياته التعليمية منذ بدايتها وحتى نهايتها، وأن الكاتب لم يتطرق إلا إلى حياته دارسا، وكان ينتوي أن يلحق بهذا الجزء من السيرة جزءا آخر يتحدث فيه عن حياته العملية ووظائفه ومؤلفاته ومنهجه في الحياة والكتابة، ولكن يبدو أن الحياة ابتلعت رغبته فيما تبتلع من رغبات ومطامح، فلم ير هذا الجزء النور، من هنا كانت شخصية المعلم بالنسبة للكاتب محورية في سيرته (مع الأيام) فراح يسلط عليها الأضوار الكاشفة عن طبيعة شيوخ ومعلمي تلك المرحلة على نحو ما أشرنا في الصفحات القليلة السابقة.

<u>رابعًا: المهنيون:</u>

وتلقانا في هذه السيرة نماذج لشخصيات مختلفة، قد لا يخلو منها مجتمع أو عمران سكاني، وإن لم يكثر الكاتب من هذه النماذج في سيرته الذاتية، لكنها موجودة على كل حال، مما يعطي انطباعا بالتنوع والبساطة والتفاعل الإنساني مع المجتمع بما فيه ومن فيه، وهذه النماذج هي نماذج بشرية كانت ولا تزال موجودة في عالمنا الحديث والمعاصر، وإن تفاوتت نسبة وجودها من مجتمع لآخر، ومن بيئة لأخرى بحسب التطور الكبير والمتسارع الذي لحق بالمجتمعات، ومن هذه النماذج نموذج الباعة الجائلين، وأصحاب الحرف والمهن المتنقلين من

١- مع الأيام ص١٣٢

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

مكان إلى مكان، وغير هؤلاء ممن كانوا يجوبون القرى والمدن ببضائعهم وأدواتهم في بداية القرن العشرين وما يليه، وحتى وقت قريب، وربما ما زال لدينا بقية منهم ومن أشباههم، يؤدون الأداء نفسه، ويمتهنون المهن نفسها، مع اختلاف طفيف في الشكل والأدوات.

لقد صور لنا الراوي نموذجا من هؤلاء نكاد نلمسه بأيدينا، ونحسه بمشاعرنا؛ لأنه يذكرنا بماضينا، وينقلنا إليه بكل طواعية؛ تجاوبا معه، وانفعالا به، فمَن مِن طلاب العلم في الريف والحضر، والقرى والمدن لم يلتق هؤلاء الباعة الجائلين؟ ومَن مِن هؤلاء الطلاب لم يتعرف إلى هؤلاء المحترفين الذين يجوبون الحواري والأزقة ويجلسون على قارعة الطريق، أو في نواصي الشوارع العامة التي يمر منها العابرون من البشر، يعلنون عن أنفسهم وعن وجودهم بالنداء أو الغناء؟ لا أظن أن واحدا من ذلك الجيل الذي صوره الكاتب وما يليه من أجيال إلا وقد عاش تلك المرحلة، وتفاعل مع تلك المعطيات، وهو ما يشهد للكاتب بانغماسه في محيطه الاجتماعي وتفاعله مع معطياته.

ولقد صور الراوي إحدى هذه الشخصيات الجوابة في الحواري والأزقة، بما معهم من ألعاب وحلوى، يسيل لها لعاب الصغار، ويخرجون بما معهم من مليمات وقروش، للشراء والاستمتاع والتسلي أحيانا، لقد كانت الشخصية الثانوية التي صورها السارد هنا نموذجا لأمثال له كثر، كانوا يحتالون لاجتذاب الصغار إليهم، فيأخذون ما معهم بالحيل الظريفة التي ربما تعتمد على عنصر الحظ في اختيار ما يكافئ أثمانهم الزهيدة، فمنهم الحواة، ومنهم اللاعبون بالأوراق، ومنهم أصحاب العجلة المستديرة التي تحمل موشرات عند حوافها مثل عقارب الساعة، كل مؤشر منها يتجه ناحية صنف من الحلوى، أو لعبة من اللعب المختلفة الأشكال والألوان، فإذا ما أدار الصبي العجلة فإنها لا شك واقفة عند مؤشر من هؤلاء أمام صنف من أولئك، فيكون من نصيب المشتري، وربما يكون مدير العجلة هو البائع نفسه، فيقفها عند صنف لا يسبب له الخسارة، وقد يديرها صبي فما تقوى يده الضعيفة

على إدارتها نحو الصنوف التي يريدها، كل ذلك أشار إليه السارد دون تفاصيل، لكن من شاهدوا مثل تلك الظواهر في قراهم ومدنهم يفهمون ما أجمله الكاتب ولم يتناوله بالتفصيل، يقول السارد: " لقد وقف إبراهيم في صباح هذا اليوم إلى بائع الحلوى بمليمه، يدير ذلك المثير المتحرك على محوره، ويرقبه حين ينتهي إلى العدد المقسوم له فيحوزه، وهكذا فعل الصبيان وفعل إبراهيم معهم ما يفعلون، .... وكان هذا البائع بصندوقه وحيلته جديدا على المدينة وأولادها، فكان يلم به الأولاد، على حين كان يعده نفر من شيوخ الآباء ضربا من الميسر لا يحل للأولاد أن يعلموه أو يعملوه "[١].

ولقد ذكرنا الكاتب بصورة كنا نراها، ونحن في مراحل الطلب الأولى بالمدرسة الابتدائية الأزهرية، وكنا بما معنا من قروش زهيدة عندما يدق الناقوس ليعلن عن وقت الفسحة، نخرج جماعات وفرادى إلى الباعة الذين كانوا يتمركزون عند بوابة المعهد أو بالقرب منها، بما معهم من مأكولات وحلويات، وأحيانا بعض الفاكهة من سقط الجنائن، فندفع إليهم ما معنا ويدفعون إلينا ما يكافئها مما معهم، ذكرنا الكاتب بشيء من ذلك فيما جاء على لسان الراوي: " ما يكاد يدرك باب المدرسة، ويرى جموع الصغار يتزاحمون على الباعة ... ويدفع يده إلى جيبه في خفة عنيفة لتنتزع قرشه من مقره في جيب سرواله ... ويعدو به إلى الباعة يختار ما يحب، فإذا كل ما يعرضون محبب إليه، ولكن قرشه لا يبيح له من هذا كله إلا شيئا أو شيئين "[٢].

وأما شخصية الحرفيين فقد صورها الكاتب تصويرا دقيقا في شخص ذلك " الحَذَّاء " الذي يصلح أحذية أهل الحي، حيث تعرف إليه " إبراهيم " من خلال زميله أحمد، ولم يكن تَعَرُّفُ إبراهيم إلى الحَذَّاء بسبب مهنته، ولكن بسبب ما اشتهر به من اقتنائه صندوقا من الكتب، يقرأ فيها في أوقات استراحته من العمل،

١- مع الأيام ص١٢٧-١٢٨

٢- مع الأيام ص٥٠-٥١

ويسمح للتلاميذ باستعارتها وإعادتها مقابل قروش قليلة، وكانت هذه الكتب عبارة عن قصص شعبية وروايات طويلة، ذات أجزاء، تصور عالم البطولة والشــجاعة لدى أبطال هذه القصص.

ولقد صور الراوي تلك الشخصية تصويرا متعدد الجوانب، فصوره تصويرا شكليا، يعتمد فيه على ملامح الجسد، بما ينبي عن طبع الشخصــية ومنهجهـــا، فنجده يقول: " كان قليل الحديث، في وجهه العبوس والحزم، لا يحب أن يُرَدَّ عليه تقديره وما يطلب من أجر، ولا يحب أن يقبل عملا يختلف فيه على الأجر "(١).

وصور الراوي عقل الحذاء وإقباله على القراءة بنهم قائلا: " لقد كان هــذا الحذاء يحب أن يقرأ ولا يحب أن يعمل، لا يؤثر العمل على القراءة إلا حين يريد أن يؤثر بطنه بلقمة وفمه بلفافة من التبغ، فإن هو وجد ثمن هذا وهــذه نفــض يديه من الأحذية، وسكن في ركنه يقرأ في كتاب من تلك الكتــب التــي يضــمها صندوقه، ساكنا لا تكاد تتحرك منه يد أو رجل، مطرقا لا يكاد يرفع رأسه، هادئا لا تسمع له صوتا "(٢).

لقد استطاع الراوي أن يقفنا على معالم الشخصية من الــداخل والخــارج، ولكنه لم يقفنا على ما تثيره من تساؤلات في أذهاننا، فلا شك أن القــارئ حــين يقف على ملامح تلك الشخصية لا بد أنه متسائل عن أشياء منها: لماذا تجاهــل الكاتب اسم الشخصية؟ هل لجهله به أم لسبب آخر يعلمه هو ولم نقف نحن عليه؟ أم لأنه غريب عن المدينة ولم يتطوع أحد بسؤاله عن اسمه، واكتفوا في التعامل معه بلقبه (الحذاء)؟

وكذلك لم يذكر الكاتب شيئا عن حياة الرجل الخاصة، ولا الأســباب التــي دفعته لامتهان تلك الحرفة، التي تتعامل مع أحذية الناس وما قد يعلق بهــا مــن وساخات الأرض، فهو ليس كغيره من أهل تلك المهنة، فهو نموذج آخر مثقــف،

١- مع الأيام ص٧١
٢- مع الأيام ص٧٢

وقارئ نهم، وذو مزاج مختلف، تركنا الكاتب نهبا لتلك التساؤلات، التي لا تزال تلح في الوقوف على إجابات لها، فقد يكون الرجل وراءه قصة دفعت به إلى هذا المجال، ولا يد له فيها، أو له يد لم يفصح عنها لأحد.

وتبقى شخصية ثانوية أخرى ذكرتها السيرة، ولا أدري أهذا موضع عرضها مع هؤلاء المهنيين، فلا علاقة لها بهم، أم تحتاج إلى موضع آخر وعنوان مختلف؟ وإن كنت أرى أن يختم بها هذا المبحث على أي نحو من الأنحاء، لأنها شخصية ليست مؤثرة في حياة الكاتب إلا بدرجة محدودة، وربما تكون شخية غير متكررة في عالم التلاميذ المتلقين للعلوم والمعارف في حياتنا التعليمية، فوجودها يأتي على أضيق نطاق، وبشكل غير متكرر، وهي شخصية الضابط الذي عرفه إبراهيم في مدرسته الابتدائية، والتقاه بعد ذلك في المدرسة الثانوية، وكانت مهمته المساعدة في تحقيق الانضباط والأمن بالمدرسة، وكأن بعض المدارس كانت تعتمد على هذا التأمين بالاعتماد على بعض رجال الأمن، وقد يكون هذا الضابط من قبيل الأمن الإداري؛ لأن وزارة المعارف لم تكن تخصص لكل مدرسة ضابطا يوفر لها الأمن والانضباط بين صفوفها.

ويبقى هنا ما جلل تلك الشخصية من غموض، لم يكشف عنه الكاتب الغطاء، كما فعل مع شخصية الحذاء.

لقد تنوعت الشخصيات في هذه السيرة تنوعا ملحوظا، وكلها تدور في خدمة الحدث، وتلتف حول الشخصية المحورية " إبراهيم " التي هي محور الأحداث، فالراوي ينقلنا من شخصية لأخرى من خلال إبراهيم نفسه، فهو محور الدائرة وكلهم يدورون في فلكه، وإن اختلفت أدوارهم وأزمنتهم وأمكنتهم ومواقفهم، وقد نجحت البنية السردية في توظيف تلك الأدوار، وتوجيه تلك الشخصيات لما يؤدي غاية السارد من سرده.

المبحث الثالث

بنيتا الزمان والمكان

أولا: بنية الزمان:

يعد الزمن من أهم العناصر الفنية التي تعتمد عليها عملية السرد الروائي والقصصي، ولا شك في أن السيرة الذاتية جزء لا يتجزأ من هذا التصميم الفني المعتبر، ورغم أن السرد الروائي يعتمد على الخيال بشكل أساسي، وربما احتل الواقع مساحة منه، فإن السرد السيري يعتمد الواقع أساسا في نهجه الفني، وإن لم يسلم أحيانا من تدخل الخيال على استحياء، ورغم ذلك كله فعنصر الزمن في كليهما من القواسم المشتركة بين كلا النوعين؛ إذ لا يمكن لسرد قصصي أو سيري أن ينهض خارج إطار الزمن، فالزمن إذن عامل أساسي من عوامل تكوين الأحداث وتلوينها بالصبغة التي عاشها وتفاعل معها كاتب الأحداث ومسجل الوقائع.

فالزمان هو الحاضنة التي تتشكل في رحمها الأحداث والوقائع، وتنضج وتكتمل حتى تستوي خلقا كاملا، تعبر عن ذلك د/ سيزا قاسم قائلة: " الزمن هو القصة وهي تتشكل وهو الإيقاع "(١). فالزمن هو هيكل الرواية أو السيرة، التي تتشكل منسابة فيه، غائصة في طواياه.

فالزمان بالنسبة للسرد السيري هو عمدته وعصبه؛ لأن هذا النوع من السرد هو زماني بالدرجة الأولى، بما يعتمد عليه من هذا العنصر الفني الأصيل، فهو منه كالملح للطعام، بل هو بشكل أكثر دقة كالهواء للإنسان، لا وجود له بدونه.

ويرى النقاد أن الزمن في هذا النوع من السرد الفني، يقصد به تلك العلاقة القائمة بين الهيكل الزمني للأحداث المتمثل في المساحات الزمنية المحددة بالأيام

١- د. سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ضمن مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤م ص٣٧

والأشهر والسنين، وبين الصورة الكلية للنص السردي التي تعبر عنها الأوراق المسطرة الحاملة للجمل والعبارات. ومعنى ذلك أن هناك فرقا بين الزمن السردي وزمن الأحداث، فالزمن السردي تتوالى فيه الأحداث فرادى، بينما زمن القصة قد تتداخل فيه الأحداث، فتقع متزامنة، لأشخاص مختلفين، ومترابطين في الوقت نفسه. وهو ما يسمح بتقديم بعض الأحداث على بعض، دون الارتباط بتسلسل زمني.

ويعتمد الزمان السردي على مجموعة من المفارقات والتقنيات الفنية، التي تدير عملية السرد وتتمحور حولها الأحداث، ومن تلك المفارقات:

- الاسترجاع.
- الاستباق.
- التلخيص.
- الممازجة بين الأفعال الممهدة للحدث.

وسوف نتناول ما يوافق ذلك من سيرة الأستاذ إبراهيم الإبياري (مع الأيام) فيما يلي:

الاسترجاع:

إن عملية السرد حينما تسير بشكل طبيعي، فإنها تمضي في العمل السردي بشكل تراتبي، حسب وقوع الأحداث في حياة الشخصيات، ولكن هذا التراتب في سرد الأحداث قد يجيء بشكل غير منتظم، وإنما يأتي مخالفا المألوف، فنجد السارد يقف بقارئه فجأة عند نقطة معينة؛ ليأخذه من الأحداث راجعا به وبقارئه معا إلى الوراء، في حالة إيقاف لزمن السرد، ليسلط الضوء على ما فات من حياة الشخصية المحورية، أو إحدى الشخصيات المحيطة بها الفاعلة في حياتها، فوظيفة الاسترجاع في الغالب هي " تسليط الضوء على ما فات أو غمض من حياة الشخصية في الماضي، أو ما وقع لها خلال غيابها عن السرد "(١).

١ – لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية ص١٨

وربما تساءل بعض القراء: لماذا يلجأ كاتب السيرة الذاتية إلى هذه المفارقة الفنية؟ وما الذي يستهدفه من هذا (الاسترجاع)؟ وربما تبين للمدقق والممعن في القراءة أن هذه التقنية الفنية تساعد في ربط الأحداث الحاضرة بالماضية، وتؤلف بين الأحداث، وتسهم بشكل مًّا في فهمها، حيث يجد الكاتب نفسه أحيانا مضطرا لتذكير القارئ بشي من ماضيه، حتى يضمن تواصل أفكاره مع حاضر السرد؛ فتتابع السرد قد ينسي بعضه بعضا، وأحيانا يحدث هذا مع كل قارئ لأي عمل أدبي أو نقدي؛ فقد يجد نفسه وقد وصل إلى مرحلة معينة في قراءة ابتدرها، ثم مع الإيغال في القراءة ربما تاهت منه الأفكار، وغامت منه الرؤى، فيعاود الرجعى إلى الوراء، متصفحا ما أنجز قراءته؛ ليعود إليه الوعي بحاضره، ولا يكاد يسلم من هذا أحد القراء والدارسين، وربما لجأ كاتب السيرة الذتية والرواية إلى مثل هذا، ولكنه رجوع فني، يعتمد على التصوير الفني، الذي يقنع القارئ بإلحاح الحدث الفائت، وأهميته بالنسبة للكاتب وملاحقته له، كي يضعه في اعتباره.

وفي سيرة (مع الأيام) يعي السارد عنصر الزمن، ويوظفه بمختلف أشكاله الفنية، ونجد الكثير من الإشارات والمواقف الدالة على هذا الوعي، وذاك التوظيف، من ذلك قوله وقد تعرض في مرحلة ما، لغلظة معلم اللغة الإنجليزية وإيذائه والتنكيل به: " ولا تزال ذاكرة إبراهيم تحفظ الكثير من تلك الصور المؤذية المغرقة في الإيذاء، وتحفظ الكثير من تلك الصور المخزية الممعنة في الإخزاء"(١).

فالنص يشهد بأن ذاكرة بطل السيرة حافظة، مختزنة للكثير من الصور الفائتة، والمواقف المؤلمة في حياته، وأنها تلح عليه كلما تعرض لموقف إيذاء مستجد، وما هذه الصور المؤذية المخزية إلا من قبيل ما تعرض له إبراهيم من أبيه أو في كتاب الشيخين من تكدير للصفو وسلب للحرية وامتهان لمرحلة

١- مع الأيام ص٦٣

الطفولة، بتحويل إرادتها عما قُدِّرَ لها من العفوية والبساطة والتلقائية، ومن هنا راحت تلح عليه تلك الصور كلما طمحت نفسه إلى التخلص من آثارها.

وكما تحتفظ ذاكرة إبراهيم بالمواقف المؤلمة والمخزية في حياته الماضية، فهي كذلك تحتفظ بمواقف أخرى مضيئة في حياته، فيعاود استرجاعها من الذاكرة، لما تحمل من أنس وحب برفقين له لا يلم بهما إلا لماما حينما يأتيان من القاهرة برفقة أسرتهما التي تمتد بجذورها إلى مدينة طنطا مسقط رأسه، حينئذ كان إبراهيم يلتقيهما، ولا يكاد يفارقهما فيما يمكثان من أيام، حتى إذا عادا من حيث أتيا يودعهما بأسى ومواجع قلبية، فهو دائم التذكر لهذين الرفيقين الطارئين، يقول: " ولا تزال ذاكرته تذكر هذين الطارئين الصغيرين اللذين نزلا حيه عاما من الأعوام، ضيفين على قريب لهما في الحي، ولم تكن هذه المدينة مدينتهما، وإنما أتيا من القاهرة، فإذا إبراهيم لا يكاد يفارقهما... " هو هنا يتذكر بعض صور ماضيه الفائتة، رغم أنه فارقها منذ سنوات، لكنها تلح عليه؛ لمكانتها منه، واعتزازه بها.

لقد كان لدى السارد وعي بهذا الملمح الفني، فوظفه في التعبير عن أتراحه وأفراحه، وأوقفنا بذلك على حقيقة أن الذاكرة تختزن بداخلها ما تلتقطه من أحداث مؤثرة، وأنها تقوم باستدعائه طالما تاقت النفس إليه.

<u>الاستباق الزمني</u>:

وأما عنصر الاستباق الزمني:فهو كذلك من العناصر الفنية، التي تمضي بالسرد إلى غير ترتيبه، فإذا كان (الاسترجاع) هو الرجوع بالسرد إلى الوراء؛ لاستدعاء موقف أو حدث، له عند السارد دلالة معنوية، فكذلك الاستباق الزمني يؤدي إلى إيقاف السرد لحظات، بإحداث قفزة زمنية؛لاستشراف المستقبل، والتطلع إلى هدف ملح، ومحوري في حياة الكاتب، فكأنما يتعجل تحقق الحلم قبل أوانه، فهو يطل على هدفه الذي لم يتحقق بعد، ويشير أحد النقاد إلى أن الترجمة الذاتية هي أكثر الفنون ارتباطا بهذه التقنية الفنية وسماحا بها، لأن الكاتب إنما

يكتب مستبقا الأحداث؛ لأن الأحداث كلها بين يديه، فهو من عاشها، ويعلم ماضيها وحاضرها ومستقبلها؛ لأنها كلها جزء منه وتحت يده، تقول د/سيزا قاسم: " والشكل الروائي الوحيد الذي يستطيع الراوي فيه إلى أحداث لاحقة هو شكل الترجمة الذاتية أو القصص المكتوب بضمير المتكلم، حيث إن الراوي يحكي قصة حياته حينما تقترب من الانتهاء، ويعلم ما وقع قبل وبعد، لحظة بداية القص ويستطيع الإشارة إلى الحوادث اللاحقة دون إخلال بمنطقية النص ومنطقية التسلسل الزمني "(١).

ويعرفه صاحب معجم مصطلحات نقد الرواية قائلا: " هو مخالفة لسير زمن السرد تقوم على تجاوز حاضر الحكاية وذكر حدث لم يحن وقته بعد. والاستباق شائع في النصوص المروية بصيغة المتكلم، ولا سيما في كتب السير والرحلات، حيث الكاتب والراوي والبطل أدوار ثلاثة يمثلها فرد واحد، وهذا الاختلاط في الأدوار يؤدي إلى تداخلها وبالتالي إلى تداخل أزمانها، ويتخذ الاستباق أحيانا شكل حلم كاشف للغيب أو شكل تنبؤ أو افتراضات صحيحة نوعا ما بشأن المستقبل"(٢).

وقد وظف السارد بعض الإحالات الاستباقية للزمن السردي توظيفا معبرا، وفي سيرة (مع الأيام) للإبياري يطالعنا من البداية وفي الصفحة الأولى منها هذا التوظيف الفني، في صورة رؤيا يراها والد إبراهيم " فقد رأى الأب فيما يرى النائم أنه قد تهيأ يستقبل النيل في انصبابه في عام فيض فائض ليحتويه في جوفه، ولكنه ما كاد يفعل حتى فزع لها، فهب من نومه دون أن يتم ما انتوى"(٣).

فالرؤيا هنا تبتدر القارئ منذ البداية، وتأخذه إلى افتراضات وتأويلات شتى، قد يتحقق شيء منها أو لا يتحقق أي شيء، ولكنها تمثل أمام القارئ وتطل برأسها على مدار السرد كلما عنَّ في حياة الأسرة أمر يستحق الاطمئنان والثبات

١- د.سيزا قاسم: بناء الرواية ص٦٥

٢- د.لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية ص١٥-١٦

٣- مع الأيام ص١

أو الاضطراب والقلق، وذلك فيما يتعلق بمستقبل الصبي إبراهيم، واستكمالا لهذا الاستباق الزمني راح السارد يطلعنا على بعض تلك التأويلات قائلا:"فتأوله المتأولون وليدا يولد له، بينه وبين الخير العميم ما بين أهبة الأب يتناول النيل في جوفه ويقظته فزعا ولم يفعل "(١).

فالمتأولون لرؤيا الأب كُثْرٌ، وهذا يدل على اختلاف تفسيراتهم، وربما تضاربها، فمنها المطَمْئِن ومنها المُقلق، ومنها ما يجلب البشرى، ومنها ما يبعث على الجزع، ولكن السارد لم يطلعنا إلا على تعبير واحد، واختلافُه إلى معبِّرين كثيرين يدل على ما ألمَّ به وبالأسرة المتوارية خلف رؤياه من قلق واضطراب، فهو يستمع لأكثر من معبِّر لعله يجد من بينهم من يذهب آثار هذا القلق، وقد بدا ذلك في تعلقه بذلك التعبير الذي يميل ناحية الخير لولده.

ومن الاستباقات أيضا ما راح يصوره دائما بطل السيرة من إحساسه بفقدان حريته، فهو يبحث عنها طول الوقت، تلك الحرية التي حُرِمها صبيا من جراء قيود والده، وحرمها مترددا على كُتابين لتحفيظ القرآن الكريم من جراء فظاظة وقسوة الشيخين، وحرمها كذلك من بعض معلميه في المدرسة الابتدائية حين لم يسمح له بالتعبير عن رأيه، وألحق به بعض الأذي البدني وأشد منه النفسي، كل ذلك دفع إبراهيم إلى التطلع الدائم لمستقبل يحلم فيه باسترداد حريته المسلوبة، ولذ راح يلتمس هذه الحرية ويبحث عن هذا المستقبل، لعله يجد ضالته المفقودة، وقد راح ينظر إلى كل جديد في حياته على أن فيه الخلاص من مصدر أذاه، " أدرك آخر الأمر أن هذه المدرسة الجديدة سوف تفتح السبيل أمامه إلى أن يكون ملحوظا، وما عليه إلا أن يمضي فيها جادا، فعاد إليه اطمئنانه، واستقر في نفسه على هذا الأمل الذي ملأ نفسه، وغدا وهو يفكر في ذلك الأمل الكبير الذي ملأ عليه دنياه خيرا كثيرا، رآه قريبا على الرغم من طول المدى بينه وبينه "(٢).

١- مع الأيام ص٢

٢- مع الأيام ص٥٦

وهذا ما يفسر أيضا سرعة التحاقه بصفوف الثوار في ١٩١٩م ؛ لأنه استشعر أن هذا المستعمر هو السبب الرئيسي في انتزاع حرية الآباء والمعلمين، وبالتالي انعكس ذلك بشكل غير مباشر على حريته هو وأترابه؛ لذا رأى في الاحتلال البريطاني سببا أصيلا فيما ألم به، فراح يلقي بكل جرانه في مواجهة المحتل، ضاربا بتحذيرات والده - المشوبة بالرحمة - عرض الحائط. وسرعان ما تجاوب والد إبراهيم معه فانضم إلى الصفوف المقاومة وسمح لولده عن رضى بتلك المشاركة، وسرعان أيضا ما لمس إبراهيم أثر الحرية المنشودة، فقد وجد إلى جواره في صفوف الثوار معلمه الذي آذاه من قبل، فأدرك إبراهيم أن حريته قد عادت إليه وأن حلمه بها قد تحقق إلى حد ما.

ويبقى أن نشير إلى أن هاتين القيمتين الفنيتين: (الاسترجاع والاستباق) لم يؤثرا على النسق السردي، وإنما وُظِّفا توظيفا فنيا له دلالة عبرت عن مخاوف ومطامح ألحت على الكاتب فأولاها عنايته.

وإذا كان نقاد العمل الروائي يزعمون بأن (الاسترجاع والاستباق) يعملان على خلخلة البناء في الزمن الروائي، حيث تمضيان به إلى غير وجهته، فإني أزعم أن هذا الزعم قد لا يتحقق حينما يفطن السارد إلى أهمية الدور الذي يؤديانه، وهذا ما تحقق فعلا في سيرة (مع الأيام) للأستاذ إبراهيم الإبياري.

<u>التلخيص:</u>

والتلخيص هو " المرور السريع على فترات زمنية لا يرى المؤلف أنها جديرة باهتمام القارئ "[١]. فهو بمثابة اختصار للزمن، لتسريع وتيرة السرد ونقلنا من المهم إلى الأهم في الأحداث الروائية، حيث يقوم الراوي بتلخيص أحداث معينة ومعلومة له هو، تستغرق من حياته أشهرا أو أعواما أو حقبا تطول أو تقصر، باختزالها في عبارات أو أسطر أو فقرات أو صفحات بشكل مكثف دون التعرض لتفاصيل أحداثها.

---

١ - د/ سيزا قاسم: بناء الرواية ص٨٢

وبمراجعة (مع الأيام) لإبراهيم الإبياري نلحظ أنه استخدم هذه التقنية أيضا، ووظفها توظيفا فنيا، وإن لم يعتمد عليها في عملية السرد بشكل كبير؛ إذ إن عملية التلخيص التي تعني اختصار الزمن، تعني وجود فراغ زمني مسكوت عنه، إما لعدم أهميته بالنسبة للكاتب أو لرغبته في العزوف عن مرحلته؛ لما تحمل من ذكريات مشينة أو مؤذية، فينصرف عنها الكاتب ويشير إليها مغضيا.

ومن تلك التلخيصات الزمنية ما نلمسه من السارد، حين راح يبرر امتلاء قلب إبراهيم بحب أبويه، مرجعا ذلك إلى أنه الوليد الأول في حياة الأسرة، وأنه مات بعده أخوان له، مما جعل الوالدين يندفعان في حبه بلا هوادة، حتى بعدما جاءت لهما بنتان وولد أخير لم يمنعهما ذاك المجيء من فيضان حبهما لإبراهيم، يقول: " لقد كان قلب إبراهيم مملوءا بالحب، ملأه به عليه أبوه حين رزقه بكرا وكان وحيدا، وحين مات في إثره أخوان له، وحين جاءت في إثر هذين الأخوين بنتان، وعندما جاء هذا الأخ الثاني كان الأب قد أشبع إبراهيم حبا "(١).

والتلخيص واضح في النص السردي وضوحا بينا، فميلاد خمسة من الأخوة بعد إبراهيم: ثلاثة من الذكور وبنتين، وموت أخوين من هؤلاء الأشقاء، كل ذلك يستغرق مددا زمنية، ربما بلغت العِقد أو تجاوزته، لكن السارد يلخص ذلك كله في عدة جمل.

وسيرة الأستاذ الإبياري لا تقف عند هذا النموذج التلخيصي البين، ولكن بإمكان القارئ الوقوف عليها لو أراد الاستزادة، ويبقى أن أشير إلى أن هذا التلخيص له بعد زمني، وأنه لم يؤثر بشكل سلبي على سير الأحداث، بل ربما أدى إلى تكثيف الحدث وتسريع وتيرة السرد كما أشرت من قبل، وبالتالي أدى إلى التخلص من الحشو الزائد الذي ربما ينشأ عن التفاصيل التي لا جدوى من ورائها.

١- مع الأيام ص٩٥

الممازجة بين الأفعال الممهدة للحدث:

والأفعال الممهدة للحدث في سيرة (مع الأيام) للإبياري متنوعة، بتنوع الحالية النفسية والمزاجية للكاتب، ولما كانت الأفعال هي نفسها متنوعة ما بين الماضي والحاضر والمستقبل كان تنوع استخدامها وتوظيفها في النص السردي أمرا ضروريا، تتطلبه طبيعة الحالة المزاجية للكاتب، التي تدفعه لاستخدام نوع منها دون الآخر، وأيضا الإكثار من نوع على حساب نوع آخر من تلك الأفعال.

وقد تأتي الأفعال – ماضية وحاضرة – لتحمل دلالة معينة يقصد إليها الكاتب، وقد يقترن بالفعل اسم الفعل ليشاركة تلك الدلالة، من ذلك استخدامه للزمن مبهما في كلمة (رويدا) مع تكرارها، لتدل على القرب أو البعد شيئا فشيئا، دون تحديد مدة هذا الزمن، فهو على كل حال زمن محدود وبطيء لكنه متراتب ومتواصل يقول السارد: " وما يكاد الوليد يدرُج حتى يصاب الأب بعلة يلزم لها الفراش أشهرا، رأى فيها الموت يقترب منه رويدا رويدا، ثم رآه يبتعد عنه رويدا رويدا، حتى كتبت له السلامة "[١].

وقد يأتي بالفعل مقترنا بجملية حالية، ليصور ما يحيط بالفعل من ملابساته يقول: " رزقاه والشباب غض والدنيا مواتية "[٢]فهو يبين من خلال الفعل والجملة الحالية المصاحبة له أنه جاء إلى الدنيا، ولا زال أبواه في نضارة الشباب، والأمل في الحياة مركوز، ولكن في أية سن من سِنِيِّ الشباب ؟ هذا ما لم يحدده الكاتب، فلم يربطه بعقد زمني، لكنه أعطانا صورة كلية لعمر والديه، وكذلك فعل في قوله في المشهد نفسه: مشهد مرض والد إبراهيم وبرئه منه يقول: " مافتي بعد قليل أن عاد قويا جلدا على مواجهة الحياة، وتحمل تبعاتها ومشقاتها كما كان " ص٣ ففي قوله: "بعد قليل" ما يغلف تلك العودة بالغموض الزمني، فلم يحدد هذا القليل بزمن معين كيوم أو أسبوع أو شهر أو غير ذلك، لكنه أفاد تماثله سريعا للشفاء.

١- مع الأيام ص٢

٢- مع الأيام ص١

لقد وضح إذن أن الأفعال وظروفها تلعبان دورا مهما في بنية الزمن الروائي، حتى نجزم بأنها أساس متين في تلوين النص بزمانه وهيئات شخوصه، ولولا الأفعال المختلفة لما قدر السارد على ذلك.

ثانيا: بنية المكان:

١- أهميته:

يعد المكان بالنسبة للسيرة الذاتية ذا أهمية كبرى، ولا يعد " عنصرا زائدا ... بل يتخذ أشكالا ويتضمن معاني عديدة، بل إنه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله"(١)وذلك حين يكون المكان مرتكزا رئيسيا في السيرة، ويشغل منها موقعا حيويا في حياة الكاتب، فيكون حينئذ مؤثرا في الحدث والشخصيات،عاكسا لأهميته من خلالهما، وتكون اللغة هي الأداة التي تنقل ذلك التأثر، فالمكان يكون أكثر التصاقا بحياة الشخصيات، حيث إن علاقة الإنسان بالزمان تكون غير مباشرة، من خلال أثره فيه، بينما علاقته بالمكان تكون مباشره باعتبار تعايشه معه ووجوده فيه، فهو أكثر التصاقا به وإدراكا له، وبمقدوره وصف المكان بتفاصيله وارتباطه به وأثره فيه، وليس بمقدوره وصف الزمان إلا من خلال ملابساته وجوه النفسي، المخيم على المتعايشين في الزمن، وليس المكان في حد ذاته هو صاحب الأثر، وإنما ما يشغله هذا المكان وما يمتلئ حيزه به من أشياء " فالمكان ليس حقيقة مجردة، وإنما هو يظهر من خلال الأشياء التي تشغل الفراغ أو الحيز "(٢).

وليست أهمية المكان في أنه" لا يشكل الوعاء الروائي فحسب، بل يؤدي دوره في العمل كأي ركن من أركان الرواية،ويخطئ من يفترض أنه يكون جامدا

١- د.حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي بيروت لبنان ط١ ١٩٩٠م ص٣٣

٢- سيزا قاسم: بناء الرواية ص١٠٦

أو محايدا " [١]. بل العكس هو الصحيح، فالمكان عنصر مرن يشكل الشخصيات والأحداث ويشي بطبيعتها وصفاتها، ويمنحها الكثير من التفاعل، ويعطي للأحداث زخمها، ويربطها بالواقع كي لا تفلت من يد السارد إلى عوالم متخيلة لا تتناسب مع طبيعة كتابة السيرة، التي هي أكثر ارتباطا بالواقع.

٢- تنوعه ونماذجه ودلالة ذلك التنوع في (مع الأيام):

وقد تتنوع الأمكنة في العمل السردي تنوعا ملحوظا، فتكون كعنصر مكمل للأحداث ومنبئ بها، فتنقل الأحداث من الرتابة إلى التطور ومن الثبات إلى التجدد. وقد تكون الأماكن المتداولة في السيرة الذاتية أماكن مفتوحة أو أماكن مغلقة في حيز وإطار، وقد يكون المكان ثابتا وقد يكون متحركا بتحرك الشخصيات وانتقالها من موضع إلى موضع، وفي كلٍّ يكون للمكان دلالته وتأثيره في الأحداث والمتعايشين في أجوائها.

وفي سيرة إبراهيم الإبياري الذاتية (مع الأيام) يطالعنا المكان بهيئاته كلها، فأحيانا يصوره السارد ثابتا قابعا لا يتغير، كوصفه للكُتَّاب الذي تلقَّى فيه الصبي إبراهيم القرآن الكريم حينما كان غضا طريا ابن بضع سنوات، يخطو من السادسة إلى السابعة، فالكتاب عبارة عن " ردهة واسعة مستطيلة، لم يملك الكتاب غيرها من غرفات "[٢]

ويصف السارد محتويات هذا المكان المخصص لتحفيظ القرآن الكريم على نحو ما يقول: " لم يكن مقعد الشيخ غير نشز من الخشب، يرتفع أشبارا عن أرض الأطفال، قد غطي بالفرو الرخيص البالي المختلف الألوان، ولم تكن مقاعد الأولاد غير قطع من الحصر البالية، ايتعانوا عليها هم الآخرون بقطع من الفراء لم يهيئها لم الكتاب، فالكتاب كان أفقر من أن يهيئ لأبنائه مكانا مريحا "[٣].

١- صالح إبراهيم: الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف المركز الثقافي العربي ط٢٠٠٣م ص١٣
٢- مع الأيام ص١١
٣- مع الأيام ص١٤

لقد جاء وصف المكان المغلق دالا ومعبرا، أما دلالته فهو ما ينبئ به من حالة الفقر المدقعة التي تلحق بدور العلم ومكاتب التحفيظ ورعاية عقول الصغار، وقد أدرك جيلي شيئا مما يصفه الأستاذ إبراهيم الإبياري من هيئة الكتاب والشيخ، رغم بعد المسافة الزمنية بين جيله وبين الجيل الذي عشت فيه، وهو ما يدل أيضا على استمرار حالة الفقر والإهمال التي كانت تمنى بهما مكاتب التحفيظ في الريف والقرى، ولربما تحسنت أوضاع الكتاتيب بعد ذلك بتحسن الحالة الاقتصادية للبلاد وتوافر الوعي لدى القائمين على المؤسسات العلمية، وهو ما نلمسه بشكل ملحوظ في بناء المدارس والمعاهد والكتاتيب على شكل متميز وأبنية مؤهلة للتلقي والطلب.

وأما تعبير الوصف عن المكان فقد أعطى بدقة وواقعية صورة واضحة عن معالم المكان، فالأطفال يجلسون على الأرض أو الحصير البالي الملتصق بالأرض، لا يحميهم من رطوبتها وجمودها إلا فراء قديمة بالية كذلك، وهي ليست من مقتنيات الكتاب، وإنما اجتلبها الصبية من بيوتهم، فالكتاب أفقر من أن يوفر لصبيانه مثل هذه الفراء الرخيصة البالية، والسارد يصف لنا مقعد الشيخ من ذلك الكتاب، فهو يتميز عن صبيانه بنشز خشبي كالدكة التي يجلس عليها قارئ السورة يوم الجمعة في المساجد العتيقة بالقرى والمدن، ولكن لا أظنها كهيئتها الآن ولكن التعبير يصور حالة النشز الخشبي بأنه مرتفع أشبارا عن أرض الأطفال، قد غطي بالفرو الرخيص البالي المختلف الألوان، فالمكان هنا ضيق، غير مؤهل، ولا يشجع على التلقي.

وحينما ينتقل السارد إلى وصف مكان آخر وهو المدرسة، يختلف الوصف عن سابقه، ورغم أن المكان يعد أيضا من الأماكن المغلقة، فإنه هنا أكثر اتساعا ورحابة وحجرات وأغراضا،فالمكان هنا كما يصوره "بناء ضخم ممتد أشبه شيء

بالقصور القليلة في المدينة التي كانت عينا إبراهيم تقع عليها من قبل، فتمتلئ بها نفسه إعجابا"(١).

ورغم أن المكانين من قبيل الأماكن المغلقة، وهما كذلك من قبيل الأماكن التعليمية، فإن الفرق بينهما كان واضحا سعة وضيقا، وشموخا واتضاعا، وربما كان ذلك؛ لأن دور التعليم الحكومية كانت تشرف عليها الدولة وتوفر احتياجاتها اللازمة للدارسين والمدرسين، بينما الكتاتيب لم تكن ممولة إلا من بعض ذوي اليسار المتطوعين من الأهالي المبتغين الخير، والمحتسبين الأجر؛ لذا كانوا يكتفون بتوفير المكان على ضيقه وتركه لأهالي الصغار ليمدوا أولادهم بما يجلسون عليه.

ولم يقف بنا السارد عند هذين النموذجين من الأماكن، وإنما أعطانا نماذج أخرى للأمكنة، غير الكتاب والمدرسة، كالدار والمسجد والحديقة والسوق والقطار والمحال التجارية والحقول المنزرعة وما تبعث في نفس إبراهيم من طموح إلى الحرية التي راح ينشدها على مدار السيرة كلها، وإلى الخروج من حالة الرتابة التي عاشها في ظل مدينته إلى حالة من التجدد برؤية مناظر وأجواء مختلفة توحي إليه بخواطر جديدة، فعندما تهيأ للسفر إلى القاهرة ليلتحق بدار العلوم، ركب القطار لأول مرة وراح من مقعده ومن خلال نافذته يتتبع المحطات المتعاقبة ويحفظ أسماءها، وينظر في جانبي الطريق " إلى الأرض المزروعة عن يمينه ويساره، ويتأمل ما تنبت تأملا عميقا طويلا ... وإذا هو مملوء الرأس بتفكير جديد، مملوء النفس بخواطر جديدة "(٢).

لقد ألهمه المكان برحابته وانفتاحه رحابة في الفكر واتساعا في الأفق،فمنحه القدرة على التفكير العميق،فما كان ينظر إلى الحقول المترامية الممتدة بما تحمله من خير نظرة عابرة، بل كان يتأمل ويتفكر ويتزود لعقله

١- مع الأيام ص١٤

٢- مع الأيام ص١٥٧

وفكره ووجدانه،وهذا ما يدفعني إلى تأكيد ما يقوله"ياسين النصير": "وغالبا ما يكون المكان المتحرك موظفا لغرض فكري"[١].

ومن خلال ما سبق – على وجازته- يمكن الوقوف على نتيجة مهمة، أشار البحث إليها عند التقديم للمكان وأهميته في العمل السردي، وتتمثل هذه النتيجة في طواعية المكان ومرونته وتفاعله مع الشخصية والحدث وبقية العناصر الفنية، من أجل الإسهام في خلق جو نفسي ملائم وتلوين الواقع بما يناسبه من ألوان، بل أستطيع القول أن المكان يلعب دورا إيجابيا في تغيير الأمزجة وتحريرها من قيود الضغوط النفسية والمادية على سواء، من أجل ذلك كان هذا العنصر دا دلالة صادقة في النقل عن حياة الكاتب كما رسمتها عدسته وصورتها أدواته اللغوية والأسلوبية التي سيقف البحث عليها في مبحث الوعاء اللغوي، وهو القادم والأخير من هذه الدراسة.

٩٤- ياسين النصير: الرواية والمكان (٢) الموسوعة الصغيرة ١٩٥ دار الشئون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٦ ص١٢٥

المبحث الرابع
الوعاء اللغوي

توطئة:

تعد اللغة – بما تحمل من قدرات هائلة في التعبير عن الأفكار– ذات أهمية خاصة في أي عمل سردي؛ والذي يمنحها تلك الأهمية اقتدار كاتبها على توظيفها وتطويعها لأغراضه الفنية والموضوعية؛ لذا استحقت اللغة أن تكون الوعاء الذي يحتوي كل العناصر الفنية، ويحمل دلالاتها، ويؤدي أهدافها، " فباللغة تنطق الشخصيات، وتتكشف الأحداث، وتتضح البيئة، ويتعرف القارئ على طبيعة التجربة التي يعبر عنها الكاتب... فاللغة وسيلة للتعبير عن الحياة ورصد المتغيرات الاجتماعية والنفسية والفكرية للشخصيات، ونقل حركة الأحداث بصراعها الدرامي، وتفاعلها الخلاق "[١].

ولا بد لمن يتعرض لكتابة السيرة الذاتية أن يكون ذا أسلوب راق، متمكنا من أصول اللغة، متمرسا بجمالياتها، فعن طريق اللغة الممتازة يستطيع أن ينقل القارئ برفق، ويأخذه إلى عالمه الخاص، حتى كأنه يعيش أجواءه التي عاشها، أو على الأقل يتفاعل بصدق مع ما يعرضه عليه من أحداث، وهذا التفاعل إنما صنعته اللغة الراقية التي يملك زمامها كاتب متميز، والأمر على خلاف ذلك تماما حينما تفلت من الكاتب أدواته ويفقد السيطرة على أزِمَّة اللغة، فإن حبل التواصل بينه وبين المتلقين يكون واهنا، وعرضة للقطع.

والباحث بإزاء السيرة الذاتية التي يتعرض لدراستها، يجد نفسه أمام كاتب من طراز فريد، يملك أدوات لغته الرصينة، القوية، التي تعبر بقوة وصدق عن شخصيته وثقافته، فهو من هو، الغائص في أعماق التراث العربي، المتربي على أصالته، الممتاح من ثقافته وجمالياته؛ لذا لا يعجب الدارس من توافر الأسلوب

١- د.عبد الفتاح عثمان: بناء الرواية (دراسة في الرواية المعاصرة) ط مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨٢م ص٢٠١

القوي الجزل، الموافق دائما لقواعد الفصحى وإجراءاتها المتنوعة نحويا، وصرفيا، ودلاليا، وتركيبيا، وأسلوبيا.

البناء اللغوي:

وعندما يرصد الدارس ملامح الوعاء اللغوي، الذي يحيط بسيرة (مع الأيام)، إحاطة السوار بالمعصم، يقف على غير قليل من العناصر الفنية التي تختص بها اللغة والأساليب، ومنها:

-استخدام الكاتب للألفاظ الفصيحة، وخلو سيرته تماما من الألفاظ العامية، مما يؤكد أن الكاتب غلبت عليه لغته التراثية التي كونت ثقافته ونضحت على كتاباته، فعلى مدار السيرة كلها ليس بمقدور القارئ إلا أن يتنقل بين جمل وتعبيرات فصيحة، دالة على معانيها الموجهة إليه، وقد أكثر الأستاذ الإبياري من الأساليب المجازية الموحية، الفياضة بالمعاني، ومن ذلك قوله: " وأحس الصغار من هذا الكبير هذه القسوة الراحمة" ص٣٢ فلم أقرأ هذا التعبير إلا عنده، ولعله متأثر بقول الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحمُ

ومن لغته المجازية التصويرية المحملة بالمعاني قوله: "وتأخذ الشمس في المغيب، وهي كلما جرَّت خيطا من خيوط نورها، تركت في قلب الأم وفي قلب الأب خيطا من خيوط اليأس" فهذه اللغة الشعرية التي تفعم ألفاظها بالصور والأخيلة والألفاظ المشقوقة على قد المعاني، كأنما تقف بنا أمام مرسم فنان، يملك أدواته التي يرسم بها لوحة للشمس وهي تلملم خيوطها، وكأنها عروس تجرر أذيالها.

ومما يتصل بثقافة الكاتب اللغوية وثرائها عنده، كثرة مترادفاته، وتتالي نعوته لمنعوت واحد، وكأن تدفق اللغة لديه، واستحضاره إياها دون عناء ومشقة ودون كلفة أو تصنع، كان وراء هذا السيل الجارف من النعوت والمترادفات الكثيرة، ومن ذلك قوله: " وكان رضى العريف يكلف إبراهيم غاليا من جد متصل

لا يعرف الفترة " ص١٨ " يتباريان أيهما أجهر صوتا وأغلظ حنجرة " ص١٣ "سقط عن كواهلهم العنف، وزال من نفوسهم الخوف، وانمحى من قلوبهم الحذر " ص١٣٠ مع ملاحظة ما في جمله من سجع وترصيع يناسب لغته التراثية.

ويبدو تأثر الكاتب بأسلوب القرآن الكريم إما تأثرا غير مباشر في ديباجته الجميلة، وتعبيره الأخاذ، وإما تأثرا مباشرا بتوظيف النص القرآني لفكرته، واستيحاء ألفاظه ومعانيه، وقد بدا ذلك في مواطن كثيرة منها قوله: " وقدر له أن يخرج إلى الناس، ليلتقي الاثنان على شيء قد قُدِر "ص١١٩ أو قوله: " يسرع إليه العريف الأكبر فيقبل يده، ثم يتبعه العريف الأصغر، فيفعل مثلما فعل أخ له من قبل "ص ١٤ ففي قوله (فعل أخ له من قبل) اقتباس من النص القرآني في سورة يوسف "قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" .

وأحيانا يكون الاقتباس لفظيا، ولكن الكاتب لم يوفق إلى المعنى، نجد ذلك في قوله: (ص١٧) " ولقد جرب الصغار أن رضى العريف يسهل شراؤه، فشروه ببعض ما يحملون معهم إلى الكتاب مع كل صباح من طعام أو تحف صغيرة، ينتزعونها من بيوتهم انتزاعا " فقوله: "فشروه" يقصد منها أن الصغار اشتروا ذمة العريف كي لا يشي بهم لدى الشيخ، أما أصل استخدام الفعل (شرى) فبمعنى (باع) وهم لم يبيعوا العريف شيئا، وإنما هو الذي باع لهم رضاه وصمته عنهم مقابل ما يمنحونه مما معهم، وما أظن خطأ مثل هذا يقع فيه الأستاذ إبراهيم الإبياري، لكنه ربما وهِمَ أو تعجل فسقط فيه. ويمكن إرجاع ما ورد من أغلاط لغوية ونحوية نادرة إلى مبرر من هذه المبررات، فضلا عن عدم مراجعة المكتوب مرة ثانية؛ حيث غالبا ما يعتمد الكبار على ما يكتبونه لأول مرة دون مراجعة، وربما اعتمدوا على مراجعة الناشر، تلك المراجعة التي قد لا تكتشف إلا الأغلاط المشتهرة، أما الأغلاط الخافية فتحتاج لعقل وفكر الكبار المتخصصين. ومن تلك النوادر في سيرته قوله ص٩٨: "ويجعله آبي على نصيحة أبيه" وصوابها: (آبيا).

ومن الاقتباسات أيضا قوله: " لا يجد من بين يديه ولا من خلفه من يأمره ولا من ينهاه " ص٢٢ وقوله كذلك: " فجلس إلى أبيه يشكو إليه بثه " ص٢٣ وهكذا تكثر اقتباساته من القرآن الكريم، مما يدل على عمق ثقافته اللغوية وأصالتها.

وتجدر الإشارة إلى أن أسلوب السيرة موضع الدراسة يكاد يخلو من اللغة الرمزية؛ فلطالما كانت السيرة تعبر في معظمها عن مرحلة الطفولة المبكرة من حياة الكاتب، حتى يبلغ ما يقارب العقدين أو يزيد قليلا، وهذه المرحلة غالبا ما تتسم بالعفوية والتلقائية في حياة كل إنسان، ومن هنا لم نجد الكاتب يُحَمِّل الصياغة ما لا تحتمل، فما حاجته إذن بإزاء تلك المرحلة إلى اللغة الغائمة البعيدة عن المألوف وهي أقرب ماتكون إلى الفطرة السليمة التي لا تعرف الالتواء أو المداراة والتخفي؟

البناء الأسلوبي السردي:

السرد كما يعرفه د/عز الدين إسماعيل: "هو نقل الحادثة من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية "(١). بمعنى أن الأحداث بذاتها لا تصنع سردا فنيا، ولكن تتدخل اللغة لتمنح الحدث - فوق واقعيته - أجواءه النفسية والوجدانية، فاللغة بالنسبة للأحداث والشخوص كالألوان بالنسبة للوحات الفنية، فهي تضع كل حدث وكل شخصية في إطارها المناسب لها المختلف قطعا عن بقية الشخصيات والأحداث في العمل السردي.

وكي يتحقق هذا الهدف على السارد أن ينوع في أسلوبه السردي، بحيث يمنحه كثيرا من الأشكال الفنية، التي يأخذ بعضها بسياق بعض من أجل أن تتعاون جميعها في صنع نص سردي مكتمل الأدوات.

وانطلاقا من هذا التنوع المنشود في أسلوب السرد، في السيرة الذاتية (مع الأيام) أمكن رصد عدة أشكال فنية لعملية السرد السيري عنده، من ذلك:

١- د.عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه ط دار الفكر العربي ٢٠١٣م ص١٠٤-١٠٥

١- <u>توظيف الضمائر:</u>

والمعتاد في السرد السيري أن يستخدم السارد ضمير المتكلم المفرد (أنـــا)؛ لأنه إنما يتحدث عن نفسه، ويحكي تجربته الذاتية في الحياة، وأكثر ما يناسب هذا الحكي هو ضمير المتكلم، فيقول الحاكي: (فعلت كذا وكذا) ويستطرد في الحكـــي كله على هذا النمط من السرد، مستخدما ضمير المتكلم، وقد يلجأ الســـارد إلـــى توظيف ضمير المخاطب أو الغائب، حينما يجرد من نفسه شخصا آخـــر يتحـــدث باسمه وينقل عنه، وتبقى شخصية بطل السيرة متوارية خلف ذلك الضمير.

وفي سيرة (مع الأيام) للأستاذ الإبياري يلقانا ضمير الغائب من أول لحظـــة في عملية السرد: " كان بكر أبويه، رزقاه والشباب غض والدنيا مواتيـــة " ص١ ويستمر معنا هذا الضمير يحكي ويحكي حتى آخر عبارة في سرد الســـيرة: "قـــد عرف تأويلها فيما كان، وأقبل يحب أن يعرف تأويلها فيما ســـيكون " ص١٩٧ ، وهو أحيانا يستخدم هذا الضمير بصيغة المبني للفاعل أو المعلـــوم كمـــا ســـبق، وأحيانا يستخدم الضمير بضيغة المبني للمجهول فيقول: " ومـــا أُنسِـــيَ إبـــراهيم "ص١٦٨ ويكررها كثيرا مع جمل بمضامين مختلفة، مما يدل على أن الكاتب قـــد اختار ضمير الغائب لعبر به عن حكيه في السيرة كلها حتى لا يكاد يـــزاوج بـــين الضمائر في بعض المواقف، وإنما هو ملتزم به، منذ البداية وحتى النهايـــة كمـــا أشرت.

ومن خلال القراءة الأولية للسيرة، يتبين أن ضـــمير الغائـــب قـــد فـــرض حضوره في المتن الحكائي، ويبدو أن السارد لجأ إليه؛ لعدة أسباب:

- لما يمنحه له من حرية التعبير عن الآراء، فيستطيع السارد أن يتوارى خلف ضمير الغائب ويحدث بما يشاء على لسان الشخصيات، وإنما هو يعبر عـــن آرائه وأفكاره هو وليس أحدا سواه.

- وكذلك فإن اصطناع ضمير الغائب يجنب المؤلف السقوط في فخ " الأنا"، الذي يؤدي أحيانا إلى سوء الفهم في العمل السردي. كما أنه يفصل زمن الحكاية

عن زمن الحكي؛ وذلك لأنه يرتبط بالفعل السردي (كان)؛ أي أنه يسوق الحكي إلى الأمام، ولكن انطلاقا من الماضي[١].

من أجل ذلك كله، أرى أن السارد هنا، اختار هذا الضمير دون ما سواه، عن قصد؛ لأنه يريد أن يعبر بحرية، وينطلق متجردا من أية قيود وهذا الضمير يمنحه تلك الفرصة عن جدارة.

٢- التكرار: حيث يستخدمه السارد للتأكيد على معنى معين، أو تكثيف الفكرة حوله، ومداومة التذكير لأهميته، وكثيرا ما يستخدم الكاتب جملا بعينها، ويكررها في موطن واحد أو في مواطن عديدة، كأنما يعتمد على التكرار في نقل الفكرة وتعميقها لدى القارئ، من ذلك قوله: ص٣٢ " وأحس الصغار" وفي آخر الصفحة يقول: "ولكنه أحس الرضى في وجه أبيه " "وأحس البشر في وجه الرجل" وفي الصفحة التي تليها يقول: "وهو يحس أنه مقدم على أمر كبير" وفي صفحات ٣٧ و٣٨ و ٤١ مثل ذلك، ولو راح القارئ يبحث عن مواطن التكرار في السيرة لطال الأمر، فهل لذلك دلالة عند الكاتب؟ ربما إذ من المؤكد أن توظيفه لتلك السمة الفنية لم يجئ اعتباطا، وإنما كان عن وعي، وهاكم مثالا آخر من السيرة : عندما ذهب إبراهيم إلى الشيخ المتصوف ليحضر جلسته الصباحية، إذا بالشيخ يُدَلِّي له سلة فيها مفتاح البيت لكي ينفذ إلى الداخل ريثما يأتي له، وما كان من إبراهيم إلا التقاط المفتاح من السلة، ويصور السارد موقف الصبي من إزاء المشهد قائلا: ص١٠٤ " فلم يجد بدا من أن يتناول المفتاح، ولم يجد بدا من أن يفتح الباب، ولم يجد بدا من أن يدخل " فقد كرر الكاتب الجملة المضارعة المنفية (لم يجد بدا من أن) وفيها دلالة كبيرة على حالة التردد التي كانت تلم بالصبي إبراهيم، فقد همَّ بالانصراف من أمام بيت الشيخ حين لم ير أنوار الدار، ولم يسمع أصوات أهلها، لكن الشيخ تنبه لتهليله فبادله التهليل ودلى إليه بالسلة،

١-انظر: في نظرية الرواية مرتاض ص١٥٣-١٥٤

فإبراهيم كان مترددا في البقاء أو الانصراف، ثم جاءت الجملة المضارعة المنفية مكررة ثلاث مرات؛ للدلالة على حالة التردد التي مني بها إبراهيم.

٣- عنصر التشويق: وقد لجأ السارد إليه؛ لتشويق قارئه وإثارة دهشته، وتحفيزه لترقب ما هو آت من أحداث، فنراه في سرد أحداث الكتاب والعريف والشيخ يشير إلى شيء من ذلك قائلا: ص١٩ " لكنه كان يكتب شيئا ويدبر في رأسه شيئا " وفي ص٢٠ يقول: " وقد هاله أن العريف سوف يصور لأبيه الأمر كما صوره للشيخ فقرر أن يفعل شيئا " لكن الكاتب لم يفصح عن الشيء الذي ينتوي الصبي أن يفعله إلا بعد ذلك، فهو إنما يستهدف تشويق القارئ وتطلعه للمجهول الذي أخفاه عنه، ثم أظهره بعدُ، متمثلا في تغيب الصغير عن البيت بعد انصرافه من الكتاب.

ومن التشويق أيضا في أسلوب السيرة إحالته إلى مجهول لم تتبين معالمه بعد، فعندما جاء الأستاذ (لم يسمه باسمه) إلى بيتهم وأسر بحديث إلى والده، ثم ينصرف عنها وقد شملهما جو من الرضى والاستبشار، يصور ذلك السارد فيقول: ص٣٢ " وقد قضى بينه وبين والد الصبي شيئا لم يتبين الصبي كنهه، ولم يدر تفصيله، ولكنه أحس الرضى في وجه أبيه "

وأحيانا نجد الكاتب مستعينا بالأساليب النحوية لتحقيق عنصر التشويق لدى المتلقي، كأن يباعد بين الحال وصاحب الحال، حتى ليستغرق ذلك التباعد عدة جمل متواصلة، ولا أدري أكان الكاتب يستهدف من وراء ذلك التشويق والإثارة أم لا؟ يقول: ص١٩ " وقبع إبراهيم في مكانه بعدما فرغ منه العريف، وبعدما فرغ منه الشيخ، وبعدما أقام له الشيخ قلمه، وهيأ له العريف لوحه؛ يكتب ويبكي " فبين الحال (يكتب ويبكي) وصاحبه (إبراهيم) هذه الجمل كلها، التي فصلت بينهما بكل هذه الظروف الزمانية، وكأن الكاتب يريد أن ينقل إلينا المشهد بتفاصيله، ثم يفسر لنا حال إبراهيم بعد أن هيئت له هذه الظروف كلها، التي لم تفلح في رفع العناء والمشقة اللذين يستشعرهما عن كاهله ".

لقد استطاع الأستاذ الإبياري – إذن – أن يوظف أدواته الفنية المتنوعــة، بكل ما أو تي من طاقة ليوقفنا على خلاصة تجربته، وليقنعنا بما نقله إلينا كسيرة ذاتية جزئية تمثل حياة كاتبها.

الخاتمة

وبعد تلك الجولة غير المحدودة، التي طوَّف بها البحث حول السيرة الذاتية للأستاذ المحقق إبراهيم الإبياري، والتي تحمل عنوان (مع الأيام)، أجدني بعد أن فرغت من الدراسة – بعون الله وتوفيقه، الذي لولاه ما تقدمت خطوة، ولا حبرت صحيفة– وقد خلصت إلى عدة نتائج:

- أن السرد أداة فنية مشتركة بين الرواية والسيرة الذاتية، وأنه يتميز في السيرة الذاتية عن الرواية بواقعيته الشديدة الملتصقة بكاتبها، بخلاف الرواية التي قد تجنح للخيال، أو تمزج بينه وبين الواقع مع غلبته عليه.
- ونوهت الدراسة بشخصية الكاتب، ووقفت عند ثقافته وجهوده العلمية، بمقدار ما يثبت له أصالته ومحافظته على اللغة والهوية الثقافية التي ظهرت واضحة في أدائه الأسلوبي وما خلفه من نتاج علمي وتحقيقي.
- كما قدمت الدراسة عناصر البنية السردية في سيرة الإبياري، وأجملت قبل مضمون السيرة ومحتواها، ثم تناولت بشيء من التفصيل عناصر البنية السردية التي أسفرت عن:
- الحدث: وقد تناول الكاتب معالم حياته في مرحلة الطفولة والصبى وما بعدهما، حتى مقتبل الشباب، ومراحله التعليمية التي أهلته للتوظف في دار الكتب المصرية، وأثبتت الدراسة أن الكاتب أصدر هذا الجزء من سيرته، وكان في نيته إتباعه بآخر ، يبين فيه حياته العملية، ولكنه لم يف بوعده، ولم تقف الدراسة من ذلك على سبب، غير أنها توقعت انشغاله بالتحقيق والكتابة التاريخية والدراسة الأدبية، فضلا عن حياته الخاصة عن استكمال ما وعد به.
- ولقد أوقفنا الكاتب بهذا الجزء من سيرته على ملامح جيل عاش الإبياري في كنفه، مهموما بقضاياه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.
- وأثبتت الدراسة تنوع شخصيات السيرة، وتمحورها حول قطب واحد هو شخصية البطل (إبراهيم) وأثبتت أيضا أن كان دائم التوتر، والبحث عن حريته

الشخصية، التي اكتشف أنها سلبت منه بفعل القهر المجتمعي الراسف في قيود المحتل البغيض، ولذا ثار مع من ثار في وجه المحتل في ١٩١٩م ليشارك في التنفيس عن همومه، في محاولة للالتقاء مع تلك الحرية المفتقدة.

- وأما الزمان في السيرة فكان متواصلا متتاليا، يمضي كما تمضي فصول رواية، تتتابع فيها الأحداث، ويسلم السابق إلى اللاحق؛ ولذا لم يقسم سيرته إلى فصول حسب المراحل العمرية كما يكتب معظم كتاب السير، ولكنه وضع كل فصل منها مرقما برقم، حتى بلغت فصول سيرته أربعة وأربعين فصلا، لا يحمل أي منها عنوانا.
- وأما المكان فيكاد يقتصر على أماكن ومراتع الطفولة من الحي، والكتاب، والمدرسة الابتدائية، والمدرسة الثانوية، ودار العلوم، وكلها من قبيل الأماكن المغلقة، وقليلا ما يتجاوزها إلى غيرها كالسوق والمحال التجارية والحديقة والقطار والدور والمسجد.
- ثم أثبتت الدراسة أن الكاتب استخدم تقنيات فنية ذات قيمة في لغة السرد وأساليبه، فهو لم يستخدم العامية قط ولم يستخدم لغة الحوار كذلك، وظل طوال الوقت ملتزما اللغة الفحى الجزلة المعبرة، لتثبت ريادته وقوة أسلوبه وتنوع أدواته فيه من اقتباسات قرآنية وشعرية، وغيرها مما تراءى للدارس ذكر نماذج منه في متن الدراسة.

وتبقى كلمة:

لعل هذه الدراسة تكون نواة لدراسات جادة حول أدب الأستاذ إبراهيم الإبياري ونقده وجهوده التاريخية، والتحقيقية، فقد تأخرت الدراسات حوله كثيرا ولم يأخذ بعض ما يستحق!

والحمد لله أولا وأخيرا

المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

- سيرة (مع الأيام) إبراهيم الإبياري ط المطبعة النموذجية بالقاهرة ١٩٥٩م

ثانيا: المراجع:

١- د.إبراهيم السامرائي: فن السيرة الذاتية عرفه العرب قبل غيرهم مقال منشور بمجلة الفيصل عدد ١٤٢ ربيع الآخر ١٤٠٩هـ

١- ابن منظور: لسان العرب مادة (سرد) ط دار المعارف ١٩٨٧م

٢- أحمد علي آل مريع: السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم كتاب المجلة العربية رقم ١٧٨ سبتمبر ٢٠١١

٣- أحمد مختار عمر وآخرون المعجم العربي الأساسي (المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون) ١٩٨٩م

٤-جيرالد بيرس: المصطلح السردي ترجمة عابد خازندار مراجعة وتقديم محمد بريري ط المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣

٥- د.حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي بيروت لبنان ط١ ١٩٩٠م

٦- حمدي وهبة وكامل المخندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ط٢ مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٤

٧- السعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ط١ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٥م

٨- د. سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ضمن مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤م

٩- صالح إبراهيم: الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف المركز الثقافي العربي ط٢٠٠٣م١

١٠- د.طه وادي: دراسات في نقد الرواية ط دار المعارف القاهرة ١٩٨٩م

١١- د.عبد الفتاح عثمان: بناء الرواية (دراسة في الرواية المعاصرة) ط مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨٢م
١٢- د.عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد سلسلة عالم المعرفة عدد رقم ٢٤٠ الكويت ١٩٩٨م
١٣- د.عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه ط دار الفكر العربي ٢٠١٣م
١٤- لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان دار النهار للنشر، لبنان ط١ ٢٠٠٢م
١٥- محمد خير رمضان يوسف: المستدرك على تتمة الأعلام للزركلي دار ابن حزم بيروت لبنان ط١ ٢٠٠٢م
١٦- د.محمد يوسف نجم: فن القصة ط دار بيروت للطباعة ١٩٥٥م
١٧- د.محمود أبو الخير: الترجمة الذاتية في الأدب العربي مقال منشور بمجلة (أفكار) الأردنية عدد ٤٩ ١٩٨٠
١٨- مصطفى الكيلاني: الأدب الحديث والمعاصرة إشكاليات الرواية ط المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ثبت الحكمة ١٩٩٠
١٩- نزار أباظة ومحمد رياض المالح: إتمام الأعلام ذيل كتاب الأعلام للزركلي ط١ دار صادر بيروت ١٩٩٩م
٢٠- ياسين النصير: الرواية والمكان (٢) الموسوعة الصغيرة ١٩٥ دار الشئون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٦

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	ملخص	٣٩٥٧
	Abstract	٣٩٥٨
٢-	المقدمة	٣٩٥٩
٣-	المدخل	٣٩٦٢
٤-	أولا: مفهوم السرد والسيرة الذاتية وما بينهما من ارتباط عضوي وفني	٣٩٦٢
٥-	التعريف بالكاتب إبراهيم الإبياري وتكوينه الأدبي	٣٩٦٧
٦-	المبحث الأول: بنية الحدث	٣٩٧١
٧-	المبحث الثاني: بناء الشخصية	٣٩٩٤
٨-	المبحث الثالث: بنيتا الزمان والمكان	٤٠١٢
٩-	المبحث الرابع: الوعاء اللغوي	٤٠٢٦
١٠-	الخاتمة	٤٠٣٤
١١-	المصادر والمراجع	٤٠٣٦
١٢-	فهرس الموضوعات	٤٠٣٨

تم بحمد الله